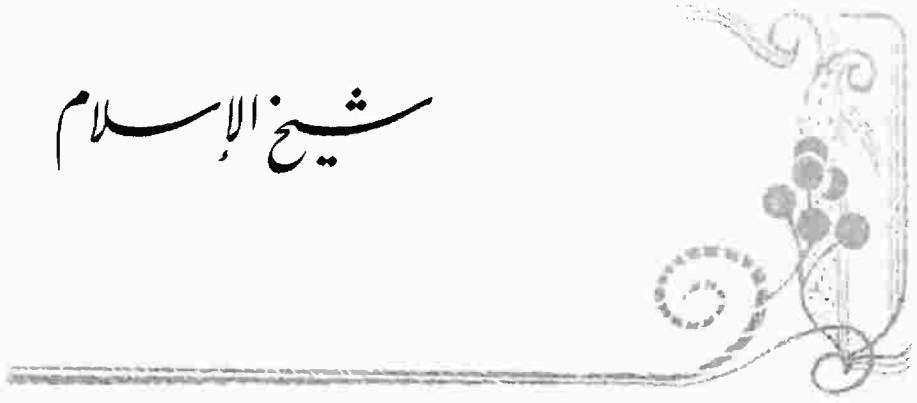

ليس شيءٌ أسمى من العلم، ولا أشرف من التعلم، ولا أفضلَ بعد الله والنبيين من العلماء... العلماء الذين وهبهم الله تعالى من فضله، الشخصية التامَّةَ القويةَ السوية، التي تجمع بين العلم النافع، والعقل الراجح، والحِسّ السليم، والثبات على الحق، والنفسِ الواثقة بالله، والقلب الخاشع لله، المحبّ له، المطمئنّ بذكره، والأخلاقِ الرضية، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمعرفةِ العميقة لمشاكل المجتمع، والإدراكِ الواعي لتبدلِ الأوضاع وتطورِ الظروف وتغير الأزمان.

هؤلاء العلماء الدعاة، هم رحمةُ المصاب، وعونُ الضعيف، ومَلاذُ الشارد، وهدايةُ الجاهل، ومنارة الضالّ، فهم المصابيح الوهّاجة في هذه الأرض... فإن فُقِدت عاش الناسُ في ضلالٍ وحيرةٍ وضياع...

وهؤلاء العلماء الدعاة المخلصون، هم القيِّمون بعد النبيين صلواتُ الله وسلامه عليهم على شريعة الله، يبيّنونها للناس، ويَنْفُون عن محجتها البيضاء، كُلَّ دَخَل غريب، أو شائبةٍ أجنبية، وَيَحْرُسُونها من عَبَثِ العابثين، وإفسادِ المفسدين، وأباطيلِ المبطلين...

وحَسْبُ هذا الصَّنْف الخيّر، والصَّفْوة المباركة من الناس قولُ الله تعالى فيهم ﴿**إنّما يخشى اللهَ من عباده العلماء**﴾ وقولُ رسول الله ﷺ في بيان مقامِهم ومسؤوليتِهم (**العلماء ورثة الأنبياء**).

وحين نذكر أو نتذكَّر الخالدين من علماءِ الإسلام العاملين المخلصين المجاهدين، تطالعُنا فيما يُطالعنا، شخصيةُ **شيخِ الإسلام أحمدَ بنِ عبد الحليم بنِ تَيْمِيَّةَ**، نوّرَ الله ضريحه، وَطَيَّب ثراه.

لقد جَمَعَ الله لهذا الرجل كلَّ العوامل التي صَنَعَتْ منه رجلاً عظيماً فريداً في عصره في سائر العلوم الإسلامية؛ مِنْ وراثةٍ طيبة قوية، وبيئةٍ صالحةٍ تَزْخرُ بالعلم وتَدْفَعُ إليه دفعاً، وعقلٍ واعٍ ألمعي، وحافظةٍ ذاكرةٍ لا تَنْسَى ما وَعَتْه، وخوفٍ من الله العليّ القدير لا يُجاري، وشجاعةٍ تَسْتَهِينُ بالأخطار في سبيلِ الحق، وإرادةٍ لا تقِفُ أمامَها الصعوبات والعقبات...!

وفي (**دمشق**) إحدى مدائنِ العلوم الكبيرة في ذلك الزمان، نشأ ابن تيميّةَ، وترعرع، ودرسَ وتعلَّم ونَبَغَ في ميادين العلم، وآتاه الله الحكمة حتى صار أحدَ الأئمةِ الأعلام...

يقول الشيخ فتح الدين بنُ سيّد الناس، أحدُ الحفّاظ المعروفين:

(**كاد ابن تيميّة أن يستوعبَ السُّنَنَ والآثار حفظاً؛ إذا تكلَّم في التفسير فهو حاملُ رايته، أو أفتى في الفقه فهو مدركُ غايتِهِ، أو ذاكر بالحديث فهو صاحبُ علمِهِ وروايته، أو حاضر بالنِّحَل والمِلَل لم تر أوسعَ من نِحلتِهِ في ذلك ولا أرفعَ من درايته!... برَّز في كل فَنٍّ على أبناء جنسه، ولم ترَ عينُ من رآه مثلَه، ولا رأتْ عينُه هو مثلَ نفسه**).

ويقول الشيخ عمادُ الدين الواسطي:

(**فواللهِ ثمّ واللهِ ثمّ واللهِ؛ لم يُرَ تحتَ أديم السماء مثلُ ابن تيمية في**

عصره، علماً وعملاً، وحالاً وخُلُقاً واتّباعاً، وكرماً وحِلماً، وقياماً في حقِّ الله عند انتهاكِ حرماتِهِ، كان أصدق النّاس عَهْداً، وأصحَّهم علماً وحزماً، وأنفذَهم وأعلاهم في الانتصار لِلحق هِمّةً، وأسخاهم كفّاً، وأكملَهم اتّباعاً لنبيّه محمد ﷺ).

كان ابن تيمية رحمه الله أبيضَ اللون، شديدَ سواد الرأس واللحية، وكان شعره إلى شحمتي أذنيه، وكان جهوريَ الصوت فصيحَ اللسان.. وقد تأهّل للتدريس والفتوى ولم يتم العشرين من عمره... وكان رحمه الله حَرْباً على المنكرات وأصحابها المناصرين لها، حتى أنه سار وأصحابه إلى الخمّارات والحانات، فكسَّروا بأنفسهم أواني الخمور وأراقوها، وعزَّروا جماعةً من أهل تلك الحانات المُتَّخذةِ للفواحش.

وكان ابنُ تيمية آيةً من آياتِ الله في الثبات على الحق ونُصْرةِ أهله، وكان حقيقةً لا يَخاف في الله لومة لائم؛ فقد رَوى ابنُ شاكر الكتبي أنّ رجلاً من عامة الناس جاء إلى ابنِ تيمية يَشْكُو مِنْ ظلمٍ نَزَلَ به من والٍ جبّارٍ آنذاك يدعى (قطلوبك الكبير)... فَذَهَبَ ابنُ تيمية إليه، وَدَخَلَ عليه، غيرَ هيّابٍ ولا وَجِل، وَتَكَلَّمَ معه في شأن الرجلِ المظلوم.... **فقال (قطلوبك) لابن تيمية ساخراً مستهزئاً: لَقَد كنتُ أودّ أنْ آتيَ إليك لأنّك كما يقولون عالم زاهد وأنا أمير وقد قيل: بِئسَ العلماءُ على أبواب الأمراء، ونعم الأمراءُ على أبوابِ العلماء... فأجابه ابنُ تيميةَ بِحَزْم: يا قطلوبك: لَقد كان موسى عليه السلام خيراً مني، وكان فرعون شرًّا منك، ومع ذلك فقد كان موسى عليه السلام يجيء إلى باب فرعون كلَّ يوم ثلاث مَرّات لِيَعْرِضَ عليه الإيمان.**

وفي عام(٧٠٠) سبع مائة هجرية اشتدَّ خطر التتار على بلاد الشام وأصبح الناسُ ما بين هارب أو مستسلم، **فخرج ابن تيمية رحمهُ الله إلى والي الشام فَثَبَّتَهُ، وثَبَّتَ الناس**، وقوَّى من جأشهم، وَوَعَدَهُم بالنصر على الأعداء إنْ هم

صبروا وأَعَدُّوا العُدَّةَ للقاء التتار وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ به، ثم بُغِيَ عليه لَيَنْصُرَنَّهُ الله، إنّ الله لَعَفُوٌّ غفور﴾[1] وبات في معسكرات الجنود...

ولم يَجِدِ الوالي وأمراءُ الجند والناسُ في غيره ملاذاً، فطلبوا إليه أَنْ يَرْكَبَ مع البريد إلى مصر، يَسْتَحِثُّ السلطانَ أَنْ يُرْسِلَ بجيشٍ من عندِه لإنقاذِ الشام ونُصْرةِ أهلها...

وسارع ابن تيمية إلى تنفيذ المهمة... وفي القاهرة قابل السلطانَ وقال له: (إن كنتم أعرضتم عن الشامِ وحمايته أقمنا له سلطاناً يَحْميهِ في أيام الحرب والخطر، ويَسْتغلُّهُ زمن السلم والأمن) ثم قال: (لو قُدِّر أنكم لستم حكّامَ الشام ولا ملوكَه، واسْتَنْصَرَكُمْ أهلُه، وَجَبَ عليكم النصرُ بِحُكْمِ أُخوّة الإسلام... فكيف وأنتم حكّامُهُ وسلاطينهُ، وأهلُ الشام رعاياكم، وأنتم مسؤولون عنهم ؟) ثم تلا قول الله تعالى: ﴿وإنْ تتولَّوْا يستبدلْ قوماً غيرَكم، ثمّ لا يكونوا أمثالكم﴾[2] وقوله تعالى: ﴿إلّا تَنْفِروا يُعَذِّبْكم عذاباً أليماً، ويستبدلْ قوماً غيرَكم، ولا تَضُرُّوه شيئاً﴾[3]... وَقَوّى من جأشِ المصريين والسلطان، وَأَكَّد لهم أن نصرَ الله حاصلٌ لا محالة، فهبَّ السلطانُ على رأس الجيش المصري لِنَجْدَةِ الشام وَنُصرةِ أهله...

ولم يكتفِ ابنُ تيمية رحمه الله بالعملِ الدائبِ على تحريضِ الناسِ والجُنْدِ والسلطان والأمراء على القتال بل شارك بنفسِهِ في خَوْضِ ميدان الجهاد.

واستعدَّ أهلُ الشام كلَّ الاستعداد، ووصل الجيش المصري وعلى رأسهِ السلطان واجتمع الشاميون والمصريون في صعيد واحد لِيَصُدُّوا جحافلَ التتار

---

(١) سورة الحج: الآية ٦٠.

(٢) سورة محمد: الآية ٣٨.

(٣) سورة التوبة: الآية ٤٠.

الكثيرةَ وجموعَهم الكبيرة... وبلغتِ القلوبُ الحناجر، وكاد المسلمون أنْ يُزَلْزَلوا زِلزالاً شديداً... **لكنَّ ابنَ تيمية رحمه الله**، وَبثباتِ المجاهدِ في سبيل الله، وثقةِ المؤمنِ بنصر الله، وَقَفَ يحرِّض الناسَ على الاستبسالِ والإقدام، ويُبَشِّرُهُم بالنصر، ويخاطِبُهم بقوله: **والله الذي لا إله إلاّ هو إنكم لمنصورون على التتار! فيقولُ له أمراءُ الجند: قلْ: إنْ شاء الله. فيقول ابن تيمية: إنْ شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً. إنّ الله لا يُخْلِفُ وعده فهو القائل وقوله الصدق ﴿وكان حقّاً علينا نصر المؤمنين﴾**[1].

وحَمِي وطيس المعركة، ودارت رَحاها شديدةً، بين الفريقين... وكانت (موقعةُ شقحب)... **وقاتل ابن تيمية ومعه تلامذتُهُ قتالَ الأبطال، وتصدَّروا صفوفَ المجاهدين الصادقين من الشاميين والمصريين الذين منَّ الله عليهم بالنّصر المؤزّر والفوزِ الكبير، بعدما قَتَلُوا من التتار خَلْقاً كثيراً، ولم يَسْلَمْ منهم إلاّ القليل...**

وهكذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يَبَرَّ قَسَمَ عبده الصالح ابن تيمية، فتطمئنَّ قلوبُ المؤمنين بِنَصِره، وتَفْرَحَ نفوسُهم وتستقرَّ بتأييده. **وكان ذلك في شهر رمضان عام (٧٠٢) اثنينِ وسبعِ مائة للهجرة النبوية الشريفة...**

وبعـــد،

فإنّ هذا الرجل الذي حَفِظَ كتاب ربه ولم تَزَلْ أظفاره ناعمة، وَتَصدّر للتدريس والفتوى قبل أن يبلغ العشرين من عمره، وعاش حياتَهُ كُلَّها، داعياً إلى الله بإذنه، بشيراً ونذيراً، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، عالِماً معلِّماً، عاملاً مخلصاً، مجاهداً بلسانه وبيانه، وقلمِهِ وتصانيفه، وعقله وَجَنانه، ويده وسِنانه، إنّ ابن تيمية هذا يستحق وعن جدارة اللقب الذي أَطْلَقَهُ عليه علماءُ زمانه، ألا وهو (شيخ الإسلام).

---

(١) سورة الروم: الآية ٤٧.

طاهرة اللسان

قال عبدالله بن المبارك رحمه الله:

خرجتُ حاجّاً إلى بيت الله الحرام، وزائراً مسجد النبي عليه الصلاة والسلام. . . فبينما أنا في الطريق عائد وقد قضيتُ حجي وزيارتي، إذ بسواد، فتبيَّنْتُه، فإذا هو امرأةٌ عجوزٌ عليها دِرْعٌ من صوفٍ وَخِمار.

- فقلت: السلام عليكِ ورحمةُ الله وبركاته.
- فقالت: ﴿سلامٌ قولاً من ربٍ رحيم﴾[1].
- فقلت لها: رَحِمَك الله، ماذا تصنعينَ في هذا المكان؟
- قالت: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللّهُ فما لَهُ من هاد﴾[2].
- فعلمت أنها ضَالةٌ طريقها.
- فقلت لها: أين تريدين؟
- قالت: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾[3].

---

(١) سورة يس: الآية ٥٨.

(٢) سورة الرعد: الآية ٣٣ وغيرها.

(٣) سورة الإسراء: الآية ١.

فعلمت أنها قَضَتْ حجَّها وهي تريدُ بيتَ المقدس.

● فقلت: مُنْذُ كمْ أنتِ في هذا الموضِع ؟

● قالت: ﴿ثلاثَ ليالٍ سوِيّا﴾(١).

● فقلت: ما أرىٰ معك طعاماً تأكلينَه ؟

● قالت: ﴿هُوَ يُطعِمني ويَسْقين﴾(٢).

● فقلت: فبأيِّ شيءٍ تتوضئين ؟

● قالت: ﴿فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً﴾(٣).

● فقلت لها: إنّ معي طعاماً، فهل لك في الأكل ؟

● قالت: ﴿ثُمّ أتمّوا الصيامَ إلى الليل﴾(٤).

● فقلت: قد أُبيحَ لنا الإفطارُ في السفر !

● قالت: ﴿وأن تصوموا خيرٌ لكم إنْ كنتم تعلمون﴾(٥).

● فقلت: لِمَ لا تكلمينني مثلَما أكلِّمُك ؟

● قالت: ﴿ما يلفِظ من قولٍ إلّا لديه رقيبٌ عتيد﴾(٦).

● فقلت: فمن أيِّ الناسِ أنت ؟

● قالت: ﴿ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم. إنَّ السمعَ والبصرَ والفؤادَ كلُّ أولئك كان عنه مسؤولاً﴾(٧).

---

(١) سورة مريم: الآية ١٠.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٧٩.

(٣) سورة النساء: الآية ٤٣. وسورة المائدة: الآية ٦.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٨٧.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٨٤.

(٦) سورة ق: الآية ١٨.

(٧) سورة الإسراء: الآية ٣٦.

● فقلت: قد أخطأتُ فاجعليني في حِلّ.

● قالت: ﴿لا تثريبَ عليكم اليوم، يَغْفِرُ الله لكم﴾[1].

● فقلت: فهل لك أن أحمِلَك على ناقتي فتدركي القافلة ؟

● قالت: ﴿وما تفعلوا من خيرٍ يعلمْهُ الله﴾[2].

● قال: فأنخت لها الناقة فقالت: ﴿قل للمؤمنين يَغُضُّوا من أبصارهم﴾[3].

● قال: فَغَضَضْتُ بصري، وقلت لها اركبي... فلما أرادت أن تركبَ، نفرتِ الناقةُ فَمَزَّقت ثيابَها فقالت: ﴿وما أصابكم من مصيبةٍ، فبما كَسَبَتْ أيديكم ويعفو عن كثير﴾[4].

● فقلت لها: اركبي.

● قالت: ﴿سبحان الذي سَخَّرَ لنا هذا وما كنّا له مُقْرِنين. وإنّا إلى ربّنا لَمُنْقَلِبون﴾[5].

● قال: فأخذْتُ بزمامِ الناقة، وجَعَلْتُ أَسْعى وأصيح.

● فقالت: ﴿واقصِد في مَشْيِك، واغضُضْ من صوتك﴾[6].

● قال: فجعلت أمشي رويداً رويداً وأترنَّم بالشعر.

● فقالت: ﴿فاقرؤوا ما تيسَّر من القرآن﴾[7].

---

(١) سورة يوسف: الآية ٩٢.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٩٧.

(٣) سورة النور: الآية ٣٠.

(٤) سورة الشورى: الآية ٣٠.

(٥) سورة الزخرف: الآية ١٣ ـ ١٤.

(٦) سورة لقمان: الآية ١٩.

(٧) سورة المزمل: الآية ٢٠.

● فقلت لها: لقد أُوتيتِ خيراً كثيرا.

● قالت: ﴿وما يذَّكَّرُ إلّا أولوا الألباب﴾[١٠].

● قال: فلّما مَشَيْتُ بها قليلاً قلت لها: أَلَك زوج ؟

● فقالت: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياءَ إنْ تَبْدَ لكم تَسُؤْكم﴾[٢١].

● قال: فسكتُّ ولم أُكلِّمْها حتى أدركتُ بها القافلة، فقلت لها: هذه القافلة، فَمَنْ لكِ فيها ؟

● فقالت: ﴿المالُ والبنونَ زينةُ الحياة الدنيا﴾[٣]. قال: فَعَلِمْتُ أنَّ لها في القافلة أولاداً، فقلت: وما شأنُهم في الحج ؟

● قالت: ﴿وعلاماتٍ، وبالنَّجْم هم يهتدون﴾[٤]. قال: فعلمتُ أنَّهم أَدِلّاءُ الركب، ومرشدو القافلة، فقصدت القباب والعمارات.

● فقلت: هذه القباب فمن لكِ فيها ؟

● قالت: ﴿واتّخذ اللّهُ إبراهيمَ خليلاً﴾[٥]. ﴿وكلَّم اللّهُ موسى تكليماً﴾[٦]. ﴿يا يحيى خُذِ الكتابَ بقوة﴾[٧].

● قال: فناديت: يا إبراهيم... يا موسى... يا يحيى... فإذا بشبانٍ

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٦٩.
(٢) سورة المائدة: الآية ١٠١.
(٣) سورة الكهف: الآية ٤٦.
(٤) سورة النجل: الآية ١٦.
(٥) سورة النساء: الآية ١٢٥.
(٦) سورة النساء: الآية ١٦٤.
(٧) سورة مريم: الآية ١٢.

كأنّهم الأقمارُ قد أقبلوا. . . فلما استقرّ بهم الجلوسُ،

● قالت: ﴿فابعثوا أحَدَكم بَورِقِكم هذه إلى المدينة، فَلْيَنْظُرْ أيُّها أزكى طعاماً، فَلْيأتِكم برزقٍ منه﴾[1].

● قال: فمضى أَحَدُهم فاشترى طعاماً فقدّموه بين يديّ،

● فقالتْ: ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾[2].

● فقلت: الآن طعامكم عليّ حرام حتى تخبروني بأمر هذه المرأة!

● فقالوا: هذه أمُّنا، لها أربعون سنة لم تتكلم إلاّ بالقرآن مخافةَ أن تَزِلَّ، فيسخَطَ عليها الرحمن.

فقلت: ﴿ذلك فضلُ اللّهُ يؤتيهِ مَن يشاءُ، واللّهُ ذو الفضلِ العظيم﴾[3].

وبعد،

فهذه هي قصةُ المتكلمة بالقرآن، أو طاهرة اللسان كما روتها كتب التاريخ والأدب. . . . تتحدث بالقرآن أربعين عاماً في كلّ أمورها وشؤونها ولا تتعدى آياتِهِ المحكمات مخافة أن تَزِلَّ فَيَسْخَطَ عليها الرحمن.

وفي يقيني أنّ الكثيرين منا يحتاجون إلى استذكار قصة هذه المرأةِ الصالحة وخاصةً حينما يطولُ بهم الحديث، أو يشتدُّ بهم الغضب، أو يَمْتَدُّ بهم السهر، أو يُدْعَوْن إلى الإدلاء بشهادةٍ من الشهادات.

فحينما يطول بنا الحديث في المجلس أو على سمّاعةِ الهاتف يَحْسُنُ بنا أن نتذكر قول الله سبحانه وتعالى في وَصْفِ عباده عباد الرحمن ﴿وإذا مرُّوا

---

(١) سورة الكهف: الآية ١٩.

(٢) سورة الحاقّة: الآية ٢٤.

(٣) سورة الجمعة: الآية ٤.

باللغو مروا كراماً﴾[1] وقوله جلّ وعلا في وصف المؤمنين المفلحين ﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾[2].

وإذا اشتدَّ بأحدِنا الغضبُ على ابنه في البيت أو تلميذه في المدرسة، أو مرؤوسه في العمل فَلْيُحاذِرْ من السبّ والشتم واللعن، فليس المؤمن بالطعّان ولا اللعّان كما يقول عليه الصلاة والسلام، ولْيُحرِزْ وسامَ البطل الشديد الذي منحه الرسول عليه الصلاة والسلام لمن يملك نَفْسَهُ في هذه الحالة إذ يقول؛ (ليس الشديد بالصُّرَعَةِ ـ أي المصارع الذي يَغْلِبُ ولا يُغْلب ـ ولكنَّ الشديد من يملك نفسه عند الغضب)، وَلْيَتَبوَّأْ مقعداً له في صفوف الذين أثنى عليهم الحق جل جلاله وامتدحهم بقوله: ﴿والكاظمينَ الغيظَ والعافِينَ عن الناسِ واللّهُ يُحِبُّ المحسنين﴾[3].

وحينما يمتد بنا السهر في ساحات التناجي إلى ساعات متأخرة من الليل يجدر بنا أن لا ننسى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿لا خيرَ في كثيرٍ مِنْ نَجْواهم إلّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقةٍ أَوْ معروفٍ أَوْ إصلاحٍ بين الناس﴾[4] وقوله جلّ جلاله: ﴿وَهُدُوا إلى الطَّيِّبِ من القولِ وَهُدُوا إلى صِراطِ الحميد﴾[5].

أما الشهادة وما أدراك ما الشهادة فلا يجوز للمؤمن أن يكتمها وعليه أن يؤديها على وجوهها بصدق، وأن يقولَ الحق من خلالها. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ولا تَكْتُمُوا الشهادةَ ومَنْ يَكْتُمْها فإنه آثمٌ قلبه﴾[6].

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٧٢.
(٢) سورة المؤمنون: الآية ٣.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١٣٤.
(٤) سورة النساء: الآية ١١٤.
(٥) سورة الحج: الآية ٢٤.
(٦) سورة البقرة: الآية ٢٨٣.

أيها الإخوة والأخوات

لعلّ أكثرَ ما جعل المتكلمة بالقرآن لا تَحيد عن آياته في كلِّ أحاديثها ومخاطباتها، مخافةَ أن تزِلَّ فَيَسْخَطَ عليها الرحمن قولُ ربها عز وجلّ ﴿ما يَلْفِظُ من قولٍ إلّا لديه رقيبٌ عتيد﴾[1] وقولُ نبيّها عليه الصلاة والسلام مخاطباً أحد صحابتِهِ الأجلّاء: ﴿ثكلْتك أمُّك يا معاذ! وهل يَكُبُّ الناس على وجوههم ـ أو على مناخرهم ـ يوم القيامة إلّا حصائدُ ألسنتهم؟!﴾.

(١) سورة ق: الآية ١٨.

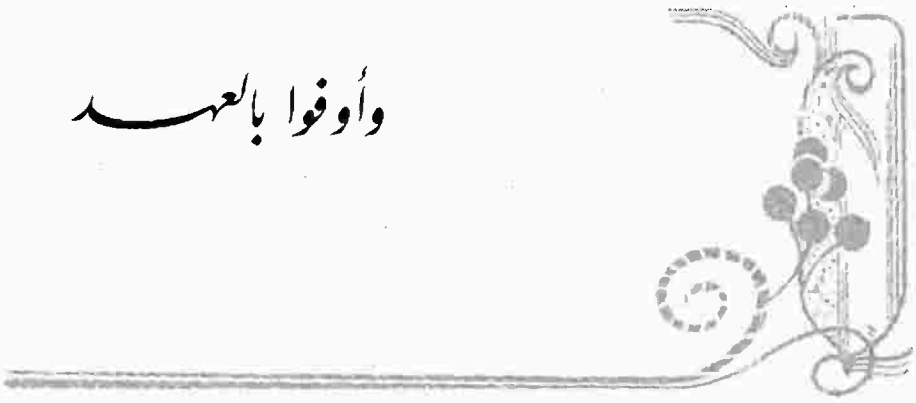

وأوفوا بالعهد

كانت الشمسُ تودّع الصحراء، وكان حادي القافلة يستقبل الليل بأناشيده الجميلة، وأرتالُ الأبل تهتزُّ براكبيها في الأودية وبين التلال في طريقها إلى بغداد، وتجارُ القافلة وأربابها سابحون في بحور أحلامهم وأفكارهم وأمانيّهم، فلم يبق بينهم وبين بغداد سوى ليلة واحدة... وهناك يبيعون ويشترون، ويستريحون ويمرحون، ويلتقون بالصحب والأهل وذوي الأرحام...

وكان في آخر الركب، شاب صغير لم تكتملْ ملامحُ رجولته بعد، في ثياب رثَّةٍ بالية، ونظراتٍ غير ثابتة، لا تستقرُّ في شرق الصحراء حتى ترتدَّ إلى غربها، ثم تتوجهَ صوب السماء، ثم تنخفضَ في تواضع وسكينة لتعودَ إلى مستوى القافلة من جديد، وصاحبُها يحرك شفتيه بكلمات هامسة أغلبُ الظن أنها آياتٌ من القرآن الكريم وأدعيةٌ من أدعيةِ النبي عليه الصلاة والسلام الخاصة بالسفر والارتحال...

كان أرباب القافلة جميعُهم في واد، وهذا الشاب الصغير في واد آخر؛ إذ لم يكـن تاجراً لتشغلَهُ تجارتُه، ولا سائحاً لِتَشْرُدَ بفكره سياحتُه، ولا صاحبَ أهل وذوي قربى ينتظرونه في بغداد بفارغ الصبر ويشتاق إلى لقياهم ببالغ

اللهفة. . . ولم يكن معه في هذه الرحلة سوى قليلٍ من الدنانير ورثها عن أبيه. . .

ومضت أكثرُ ساعات الليل، وأحسّ رجال القافلة بالتعب، فتوقفوا عند وادٍ من الأودية، وأناخوا ركائبهَم، وأخلدوا للراحة والنوم، إلّا فتانا الصغير الفقير هذا، فقد انتحى لوحده جانباً من المكان، فتوضّأ وأحسن الوضوء، ثم ولّى وجهَه شطر المسجد الحرام، ودخل في صلاته بفكر عاقل، وقلب خاشع، ونفسٍ مطمئنة. . . . وغطّ القوم في نومهم ورقادهم، واستغرق الفتى في ركوعه وسجوده وَذِكْرِ اسم ربِّه الرحيم الرحمن، اللطيف الخبير، السميع المجيب. . .

وما هي إلّا ساعة، هبّ النائمون الغافلون بعدها على هَـرْج وَمْرج اللصوص وقُطّاع الطريق، وهم ينهبون القافلة ويَسْتولُون على ما فيها من سِلَعٍ وبضائعَ ومتاع. . ! ثم توجّه اللصوص بعد ذلك إلى أرباب القافلة من الأعيان والتجار والسُّيّاح وغيرِهم يستلبون منهم كلَّ ما بحوزتهم من أموال. . .

وجاء دور الفتى الصغير، فسأله أحد اللصوص، هل معك من المال شيء ؟

فقال الفتى: نعم ! معي أربعون ديناراً. . !

فَسَخِر منه اللصوص، ولم يصدّقوه، وتركوه، وانصرفوا وقد خلّفوا وراءهم رجال القافلة مفلسين تجارة وأموالاً، مبلسين أمانيّ وأحلاماً. . . .

وعاد اللصوص إلى كبيرهم بما اغتصبوه من أموال وبضائع وقصّوا عليه أخبار القافلة، وأحوالَ رجالها، ولم ينسَ أحدهم أن يروي له قصةَ الشاب الصغير الفقير ! فاستغرب كبير اللصوص من قصة هذا الشاب، وأرسل في طلبِهِ أحدَ رجاله.

ـ فلما حضر قال له كبيرُ اللصوص: ما اسمك أيها الفتى ؟

ـ فأجاب: اسمي أبو يزيد طيفور بنُ عيسى البسطامي.

ـ فقال كبير اللصوص: هل معك من المال شيء؟

ـ فقال الفتى: نعم. ولقد أخبرت أصحابَك بأنّ معي أربعين ديناراً!

قال كبير اللصوص: وأين هي؟

فأخرج الفتى البَسطاميُّ الدنانير الأربعين من نطاقه وَوَضَعَها بين يدي كبير اللصوص!

ـ قال كبير اللصوص: أمجنونٌ أنت أيها الفتى؟ كيف تُرْشِدُ عمّا معك من مال؟

ـ قال الفتى: أنا ذاهبٌ إلى بغداد لطلب العلم، وقد أعطتْني أمّي ميراثي من أبي هذه الدنانير الأربعين، وعاهدتْني وهي تودّعني على أن أكون أميناً وأن لا أقول إلّا الصدق في كل أعمالي وتصرفاتي، وقد قبلتُ هذا العهد ورَضِيت به، وسألتزم به ما حييت التزام المؤمنين الذين يرجون ثواب الله ويخشون عقابه!

فاهتزَّ كبير اللصوص وأصابته رعدة شديدة مما سمعه من جواب الفتى وصار يصيح يا ويلنا... يا ويلنا... الله أكبر... الله أكبر، وأخذ يبكي بكاءً شديداً وهو يقول للفتى:

أنت تخاف أن تخون عهد أمّك، ونحن لا نخاف أن نخون عهد الله؟! الله أكبر... الله أكبر... الله أكبر!

ثم التفت إلى رجاله اللصوص وقال لهم:

يا قوم... هيا أسرعوا وردُّوا ما أخذتم من القافلة إلى أصحابها وتوبوا إلى الله جميعاً، فإنني قد تبت إليه!

فتأثر اللصوص مما رأوا وسمعوا، وهُرِعوا إلى أصحاب القافلة، يردُّون إليهم ما اغتصبوه من مالٍ وتجارة ومتاع، ويرجونَهُم العفو والصفح والغفران على ما اقترفوه بحقهم من إيذاء وترويع... وتاب اللصوص كما تاب كبيرهم، وسلكوا سبيل المخلصين الصادقين...

وبعـــد،

فإن كان التاريخ قد ختم حديثَه عن اللصوص وكبيرهم عند هذه النهاية الرائعة التي هَزّهم فيها موقفُ الفتى الصغير الفقير، فتابوا إلى الله سبحانه وتعالى توبةً صادقة، وهجروا ما كانوا فيه من ضلال وعصيان وفسوق، وهُرِعوا يسلكون دروب طاعة الله والإخلاص في عبادته والالتزام بأوامره، والانتهاء عن نواهيه... **إن كان التاريخ قد ختم الحديثَ عن هؤلاء التائبين عند هذه القصة، فقد تابع الحديثَ عن الشاب الصغير الفقير أبي يزيد** الذي عاهد أمّه على الالتزام بالصدق طيلَة حياته وهو يُقَبِّل يديها مسافراً في طلب العلم... **تابع الحديث عنه وهو يقرأ ويكتب ويحفظ، وهو يسابق إلى حلقات العلم ومجالس العلماء، وهو يتصدَّرُ بعد ذلك مراتبَ تعليم الناس وتوجيههم، وتفقيههم وإرشادِهم، وإنقاذهم من ظلمات الجهل والمعصية والضلال... ولم يتوقفْ حديث التاريخ عن أبي يزيد البسطامي ولن يتوقف بعد أن صار علماً بارزاً من أعلام زمانه، وسراجاً وَهاجاً لا تخبو أنواره، ولا تتوقف عطاياه في ميادين العلم والعمل والعبادة والدعوة إلى الله على بصيرة لن يتوقف الحديث عنه حتى يَرِثَ الله الأرض ومن عليها.**

أيها الإخوة والأخوات، بقيت وقفتنا الصغيرة مع بعضنا، وِقفةَ الحوار والمذاكرة...

هل صدق واحدنا ما عاهد الله عليه ؟ وهل نفّذ واحدنا بنود ذلك العهد الذي قطعه على نفسه أمام الله سبحانه وتعالى ؟ فقد قال الله جلّ جلاله:

﴿وأوفوا بالعهد إنَّ العهد كان مسؤولاً﴾[1].

لقد قطع واحد منا العهد على نفسه أن يلتزم بإقامةِ الصلاة والمحافظة عليها في أوقاتها. . . . فما له يتكاسل ويقصِّر ؟

وقطع واحد آخر ابتلاه الله بتعاطي بعض المحرمات، قَطَع العهد على نفسه أن يُقْلِعَ عن تعاطيها، وأن يتوب إلى الله، ويستغفرَه عن ذنوبه. . . فما لَه نسي العهد. . . وما بالُه يطلق العِنان لهذه المحرمات تفترس جسمه وعقله ودينه، وتُحرِق مالَه، وتُخرِبُ بيته، وتَفْضَحُ أهله وأولاده ؟

كذلك فقد قطع شخص ثالث من بيننا ابتلاه الله بعقوق والديه، قطع العهد على نفسه أن يبادر إليهما، ويرتمي على أقدامهما، معتذراً نادماً طالباً منهما الصفح والغفران. . . فما بالُه لا ينفّذ وعده، ولا يصدق في عهده ؟ إننا نذكّره بقول الله عز وجل وهو أصدق القائلين: ﴿وقضى ربُّك ألاَّ تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً، إمّا يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً. واخفض لهما جَنَاح الذل من الرحمة وقل ربّ ارحمهما كما ربّياني صغيراً﴾[2] ونذكره أيضاً بقول نبينا محمد عليه الصلاة والسلام وهو خاتم الأنبياء والمرسلين (فليفعل البارُّ ما شاء أن يفعل فلن يدخل إلاّ الجنة وليفعلِ العاقُّ ما شاء أن يفعل فلن يدخل إلاّ النار).

أيها الإخوة والأخوات، ليعد كلُّ واحد منا إلى نفسه وليراجعْ حساباته وفي طليعة ذلك، ليتأمل في العلاقةِ بينه وبين ربّه عزّ وجلّ القائل في محكم تنزيله ﴿وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون﴾ فينظرَ هل هو عبد لله حقاً في تعظيم شعائر الله، وتنفيذ أوامر الله، واجتناب محارم الله؟

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٣٤.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٢٣ ـ ٢٤.

وهل الله ورسولُه أحبُّ إليه مما سواهما ؟ فإذا كان كذلك فيا نُجحه ويا بشراه وإن كان غير ذلك، فليبادرْ إلى التوبة، وليبادر إلى الإنابة، وليسارع إلى أبواب الله سبحانه وتعالى المفتوحةِ دائماً أمام بني آدم، فيدخلَها بالندم والإقلاع عن الذنوب والمعاصي، وصِدْقِ العهد بالاجتهاد في الطاعة والتعاون على البر والتقوى.

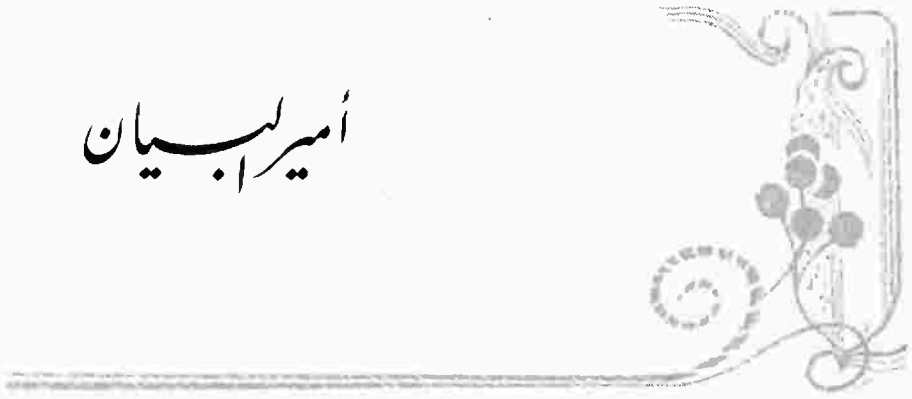

أمير البيان

حديثنا اليوم ـ أيها الإخوة والأخوات ـ نتوقف من خلاله عند شخصية عربية معاصرة، نثرت وشَعُرت[1]، ونقدت وألّفت، واتخذت طيلة حياتها من الصحافة والخطابة والأسفار والمشاركة في المؤتمرات سلالمَ وَمُرْتقياتٍ إلى وحدة الأمة العربية، ورفعِ راية الإسلام، وشدِّ أزْر المسلمين.

في قرية (الشويفات) على بعد عشرة أميال من بيروت وُلِد صاحبُنا في أول ليلة من رمضان عام ألف ومائتين وستة وثمانين للهجرة أي قبل حوالي مائة وأربعةٍ وعشرين عاماً. . . . **ذلك هو الأديب الشاعر المؤرخ السياسي المفكر الإسلامي شكيب أرسلان عليه رحماتُ الله. . .**

شهدتْ حياةُ هذا الرجل الثلثَ الأخير من القرن التاسع عشر، والنصفَ الأول من هذا القرن، القرن العشرين. . . . . وفي هذه الفترة استأسد الاحتلالُ الأوروبي لبلاد العروبة والإسلام، وفيها هوتْ الخلافةُ الإسلامية، وفيها وقعتْ الحربان العالميتان الأولى والثانية، وفيها اقتسم المستعمرون بلادَ العرب بعدما مزّقوها، وفيها ظهرتِ الشيوعيةُ الماركسيةُ دولةً حاكمة، وفيها انتُزِعَ قلبُ العروبة

---

(١) شَعُر: قال الشعر.

والإسلام فلسطين ليغتصبها يهود، وفيها، وفيها، وفيها، من الأحداث والأنباء الشيء الكثير.

في الخامسةِ من عمره تلقى شكيب أرسلان الدروس الأولى من القراءة والكتابة... وفي السادسة تَعَلَّم تلاوةَ القرآن الكريم وحَفِظ جانباً منه، ثم دخل مدرسة القرية فتلقى دروسَ الجغرافية والحساب واللغةِ الانجليزية وغيرها... ثم انتقل بعد ذلك إلى (مدرسة الحكمة) في بيروت، وَمَكَثَ فيها يتعلم ثمانيَ سنوات... **وكان أقوى الأساتذة تأثيراً لديه الشيخ عبدالله البستاني، اللغويُّ، الأديبُ، الشاعر...**

ومن الطريف أنّ الإمام الشيخ محمد عبده زار (مدرسة الحكمة) وشكيب يتعلم فيها، فأُعجب الإمام بالفتى الذكيّ الذي بدأ ينظم الشعر مبكّراً. وَتَوَقَّعَ له مستقبلاً زاهراً... ومن ذلك الحين أخذت علاقة شكيب أرسلان تتوثق بالإمام محمد عبده مما جعله يسمع منه ويتأثر به...

التحق شكيب أرسلان بعد ذلك (بالمدرسة السلطانية) ببيروت.

وفيها التقى مرة ثانية بل دَرَسَ على الإمام محمد عبده الفقه والتوحيد بالإضافة إلى علوم المدرسة الأخرى، وكان الإمام في حينها منفياً في بيروت.

وفي عام ١٨٩٠ ميلادية وكان شكيب أرسلان قد تجاوز قليلاً العشرين من عمره زار مصر لأول مرة والتقى فيها بصفوة العلماء والمفكرين...

وأحسّ منذ البداية بخطر الاحتلال الأجنبي لمصر، وكان يقول: (منذ حداثة سنّي كنت أقرأ الجرائد، ولمّا حدثت الحادثة العرابية سنة ١٨٨٢، كنت ابن اثنتي عشرة سنة، فكنت اتتبع مواقعهَا، واتحرّقُ عند ضرب الانجليز للإسكندرية، ونزولهم وتقدمهم في القطر المصري).

وفي أواخر عام ١٨٩٠ سافر شكيب إلى استانبول والتقى بثائر الإسلام،

وموقظ الشرق السيد (جمال الدين الأفغاني) وسمع منه وتأثر به...

وفي عام ١٨٩٢ سافر شكيب أرسلان إلى فرنسا، وهناك تعرّف على أمير الشعراء أحمد شوقي، وتوطّدت بينهما صداقةٌ ومودة...

وفي عام ١٩٠٩ تَشَكَّلَ مجلسُ المبعوثان العثماني في استانبول وهو أشبهُ ما يكون بالمجالس التشريعية، فاختير شكيب أرسلان ليكون نائباً عن (حوران) أحدِ سهول بلاد الشام، ويقع بين سوريا والأردن اليوم.

وفي عام ١٩١١ اعتدت إيطاليا على طرابلس الغرب، فغضِبَ شكيب من هذا العدوان، وكتب إلى مختلف الجهات، يُحَرّضُ على نَجدة العرب في طرابلس وَيَحُثهم على مَدِّهم بالأموال والسلاح؛ وقد أبرق إلى المسؤولين في استانبول عاصمة الدولة العثمانية بذلك، فجاءته برقية جوابية من شوكت باشا ناظر الحربية ـ وزير الحربية ـ آنذاك تفيض شكراً وتقديراً.

ولم يكتف بالقول والكتابة بل سافر إلى مصر ليتطوع مع طائفة من المجاهدين، الذين دخلوا طرابلس مُتَخَفِّين. وهناك انضمّ إلى القائد العثماني (أنور باشا) وكانت آراؤه سديدةً في الشؤون السياسية والعسكرية حيث قال عنه الزعيم الطرابلسي سليمان الباروني فيما بعد: (لو أن الحكومة العثمانية أخذت بتفاصيل الخطة التي رسمها الأمير شكيب، ونَفَّذَتْها بحذافيرها لما ضاع الأمل في إنقاذ طرابلس وبُرْقة، أو لاستطعنا على الأقل إطالةَ أمَدِ الحرب ثلاث أو أربع سنواتٍ أخرى).

وفي عام ١٩١٢ ألف وتسع مائة واثني عشر سافر شكيب أرسلان من طرابلس إلى تركيا، حيث اختير مفتشاً لبعثات الهلال الأحمر المصري، فقام بهذه المهمة على خير وجه.

وفي عام ١٩١٤ سافر إلى المدينة المنورة لإنشاء مدرسة في رحابها...

وفي عام ١٩١٨ ألف وتسع مائة وثمانية عشر وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، وحدث ما حَذَّر منه شكيب أرسلان، فإذا الحلفاء يخدعون العرب، ويخونون مواثيقهم مع الثورة العربية الأولى، وإذا ببلاد العرب تصبح نهباً يقتسمه الانجليز والفرنسيون، وإذا ببلاد الشام تقع في قبضة الاستعمار الفرنسي، الأمر الذي جعل شكيب أرسلان وهو عدوٌّ لدودٌ لهذا الاستعمار لا يجدُ له مقاماً في وطنه، فشدّ رحالَه إلى تركيا، إلى بلدةِ (مرسين)... **ولكنه صُدِمَ بأنّ الاتجاه العلماني بدأ يَذُرُّ قرونَه في تركيا، فما كان منه إلاّ أن تركها وتوجّهَ إلى (برلين) فأقام فيها سنوات يجاهد خلالَها بقلمه ولسانه وفكره في سبيل العروبة والإسلام... ثم انتقل بعد ذلك إلى سويسرا وأقام في (جنيف) مثابراً على جهادِهِ وكفاحِهِ ونضالِهِ.**

وفي عام ١٩٢٤ أسس شكيب أرسلان في برلين جمعية أسماها (هيئة الشعائر الإسلامية) وحَرصِ على أن تكون بعيدةً عن المسائل السياسية، مهتمةً كلَّ الاهتمام بأمور المسلمين في البلاد الألمانية. وقد مَثَّلَ أعضاءُ هذه الجمعية جميعَ الشعوبِ الإسلامية، وشارك فيها موظفو السفاراتِ الإسلاميةِ كأعضاءٍ عاملين.....

لقد بسط شكيب أرسلان موقفَ سورية من الاستعمار الفرنسي، في كثير من المؤتمرات الدولية واللجان العالمية، وبيّن أن مطلبَ سورية هو الاستقلالُ التامُّ الناجز، وجلاءُ القوات الأجنبية الأخرى، لذلك فقد اعتبرتْهُ فرنسا عدوّها القديم الدائم اللدود، فحاربته بشتى الوسائل حتى أنّ الفرنسيين نَفَوْا تاجر كتب في المغرب لحيازته مكتوباً علمياً من شكيب أرسلان. وفي (الرباط) مَنَعُوا كلَّ كتابةٍ له. كما صادروا كتباً لغيره كان شكيب قد كتب مقدماتها. وأكثر من ذلك فقد كتبتْ إحدى الصحف الفرنسية تقول: (يلزم إعدام شكيب أرسلان) وقال ضابط فرنسي كبير في ذلك الوقت: (عندما تقع حربٌ أوروبية، فينبغي على

الجيش الفرنسي قبل كلِّ شيء أن يزحف إلى جنيف ويقبض على شكيب أرسلان).

وفي عام ١٩٢٧ سافر إلى أمريكا الشمالية بدعوة تلقاها من عرب المهجر ليرأس مؤتمراً عربياً أقيم في مدينة (ديترويت). كما قام في نهاية تلك السنة بزيارة لروسيا.

وفي عام ١٩٢٩ حج شكيب أرسلان إلى بيت الله الحرام والتقى بالملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله، وألّف كتاباً عن هذه الرحلة سماه (الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف).

وفي عام ١٩٣٠ قام برحلة إلى أسبانيا ثم أصدر مجلة باللغة الفرنسية في مدينة (جنيف) سمّاها (الأمة العربية) نَذَرَها للدفاع عن قضايا العرب والمسلمين...

يقول السيد تحسين العسكري: (لقد نذر الأمير شكيب حياتَه ومواهبه لحقوق هذه الأمة، لم يفرِّق بين أحدٍ من أبنائها، أو قطر من أقطارها، فجاهد جهادَ الأبطال، وكافح بكلِّ ما لديه من قوة وحيوية، واستخدم جميعَ مواهبه الممتازة في سبيلها، فكان المناضل عنها دائماً؛ لم يثْنِهِ عن ذلك اضطهادٌ أو تشريد ولم يزعزع عقيدتَهُ ترغيبٌ أو ترهيبٌ).

وفي عام ١٩٣٤ اشترك شكيب أرسلان في وفد الصلح الذي أرسله المؤتمر الإسلاميُّ بالقدس إلى الجزيرة العربية للتوفيق بين الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله والإمام يحيى حميد الدين رحمه الله، واستطاع الوفد أن يَقُومَ بمهمته خيرَ قيام.

وفي صيف عام ١٩٣٧ سمحت فرنسا لشكيب أرسلان أن يزور سورية فاستقبله ابناءُ وطنه استقبالاً منقطع النظير. وسعد شكيب آنذاك كما يقول في

بعض كتاباته باحتضان أمه السيدة (أم البنين) له وتقبيله يديها...

وقد أرادت الحكومةُ الوطنيةُ في سورية أن تعبّر عن تقديرها له فأصدرت قراراً بتعيينه رئيساً للمجمع العلمي العربي بدمشق.... غير أنّ فرنسا عادت فنقضت المعاهدة التي كانت قد عقدتها مع سورية عام ١٩٣٦، فترك شكيب أرسلان رئاسة المجمع، وعاد إلى أوروبا وقد جاوز السبعين من عمره، وظلّ يكتب ويخطب ويراسل ويؤلف بعزيمةٍ لا تعرف التردد وهمةٍ لا تعرف الكلل.....

أما قضية فلسطين، فقد كانت أبرزَ محور بين محاور اهتمامات شكيب أرسلان ومنذ وقت مبكر، ففي مقالٍ له نشرتْهُ مجلةُ (الشورى) عام ١٩٢٦،

يقول شكيب أرسلان، وهو يُفَنِّدُ مزاعم اليهود وتخرّصات (وايزمن):

(إذا كان الله سبحانه قد حكم على اليهود بأن يتشتتوا أيدي سبا، ولا تكونَ لهم مملكة... أفيكون العربُ مسؤولين عن ذلك، وأن يُعاد شمل اليهود على ظهر العرب، ومن كيس العرب ؟ ! إنّ أربعة عشر مليوناً من هذا الشعب اليهودي يعيشون الآن آمنين مطمئنين في أوروبا وأمريكا، والأَوْلى بالأوروبيين والأميركان واليهودُ في ديارهم وبين ظهرانيهم، أن يجمعوا شملهم في مملكة واحدة من كيسهم لا من كيس غيرهم... والعجبُ العجاب أن تأتي انكلترا فَتُقطِع اليهود فلسطين.... وهي أرض عربية، أصحابُها العرب منذ آلاف السنين..... إن العَرب لم يموتوا ولن يتخلَّوْا لكم عن وطن هم أصحابه وسادتُهُ لأجلِ عامِلكم الديني أو الاقتصادي).

وفي عام ١٩٢٩ نجد شكيب أرسلان يواصل حملاته على الصهيونية في صرامة وحزم فيقول: (مما لا خلاف فيه أنّ اعتبارَ فلسطين العربية وطناً قومياً لليهود، اعتداءٌ محض، وتجاوزٌ بحت، لا يفترق بشيء عن اعتداء جماعة من

اللصوص على أهل بيت آمن واستيلائهم على البيت ومحتوياته. . . والذين يَدْعُون بعد ذلك إلى الصلح بين العرب واليهود هم أشبهُ بمن يدعون أهلَ البيت الذين سُلِبَتْ أموالُهم وَهُتِكَتْ حُرُماتُهم إلى مصالحةِ اللصوص الذين اعتدوا عليهم).

عاش أمير البيان شكيب أرسلان ـ أيها الإخوة والأخوات ـ ما يقرب من ثمانين عاماً أمضى معظمها في الدرس والقراءة والتأليف والمراسلة والنظم، فكتب في عشرات من المجلات والصحف مئاتٍ ومئاتٍ من المقالات والبحوث. وكَتَبَ الآلاف من الرسائل، وألقى مئاتِ الخطب، وأدلى بمئاتٍ من الأحاديث والبيانات، ونظم عشراتٍ وعشرات من القصائد، وأصدر عشراتٍ من الكتب ما بين مؤلفة ومحققة ومشروحة ومترجمة ومعلَّقٍ عليها. وقد كان رحمه الله يجيد إلى جانب إبداعه في اللغة العربية، اللغةَ التركية، واللغةَ الفرنسية، واللغة الانجليزية مع إلمامه باللغة الألمانية. . .

وعاد الأمير المجاهد إلى وطنه في عام ١٩٤٦ بعدما تحررت سورية ولبنان من الاستعمار الفرنسي، فاستقبله قومُه بحفاوة وإكبار، وتقاطر عليه الزوار من كلِّ مدنِ سوريا ولبنان والبلاد العربية الأخرى زرافات ووحداناً للسلام عليه، والترحيب به، والاستماع إلى أحاديثه. . . وما علموا أنه جاءهم ليودِّعهم الوداعَ الأخير بعد شهر ونصف منتقلاً إلى جوار ربه لاحقاً بركب الصديقين والشهداء والصالحين إن شاء الله.

أيها الإخوة والأخوات، في يوم الاثنين الواقع في الخامس عشر من شهر محرم عام ١٣٦٦ ألف وثلاث مائة وستة وستين هجرية انتقل الأديب الشاعر، السياسي الإعلامي، المفكر الإسلامي، أمير البيان، شكيب أرسلان إلى الملأ الأعلى مخلّفاً وراءه زوجته، وأولاده الثلاثة غالب، ومي، وناظمة، وكتبَه وبحوثَه، وقصائدَه، وبيتاً صغيراً في برلين، وزيتوناتٍ في قطعةِ أرضٍ بلبنان.

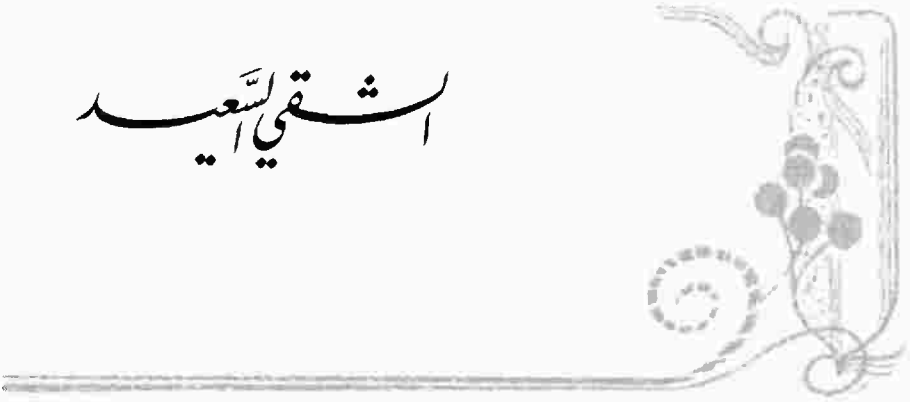

انتصر المسلمون في بدر نصراً مؤزراً، أظهر عزة الإسلام، ورفعةَ الإيمان، وشموخ الراية العليّة المحمدية... وهَزَمَ الله المشركين هزيمة منكرة، دلّلت على فسادِ الكفر، وضلالِ المشركين، واضمحلال صفوف الباطل في مواجهة كتائبِ الحق والنور والإيمان...

تقهقرت جموعُ القرشيين المشركين في بدر، وقد خلَّفوا وراءهم سبعين من رجالهم جَنْدلَتْهم على الثرى سيوفُ الحق، وسبعين رجلاً آخرين أسارى في أيدي عباد الله الصادقين المجاهدين من الأنصار والمهاجرين ساقوهم معهم في طريقِ العودة بعد النصر إلى المدينة المنورة.

وجلس عُمير بنُ وَهْب الجُمَحيّ شيطانُ قريش، وكان فيما كان يؤذي رسول الله ﷺ وأصحابَه؛ وَيُذيقُهم ألوانَ العذاب. جلس عميرٌ هذا، وكان له ابنٌ بين الأسرى في المدينة، جلس إلى صفوانَ بنِ أمية بجوارِ الحِجْرِ من الكعبة، وصار يذكر مُصابَ أهل مكة في بدر، وعددَ قتلاهم، وشَرَفَ أولئك القتلى ومكانَهم في قومهم... فاشتدت الحَمِيّة في نفسِ صفوان وقال: والله يا عمير ما في العيش بعدهم من خير!

فقال عُمير. صَدَقْتَ والله يا صفوان... ووالله لولا دَيْنٌ عليّ ليس له

عندي قضاء، وعيالٌ أخشى عليهم الضيعةَ بعدي، لركبتُ إلى محمدٍ وقتلتُه، فإنّ لي قِبَلَهم عِلةً، ابني وَهْب أسيرٌ في أيديهم.

فاهتبل صفوانُ هذه النزوة المتأججة، وهذا الحماس الشديد وقال: يا عمير؛ أمَّا دَيْنُك فعَلَيّ أنا أقضيه عنك... وأما عيالُك فأضمُّهم إلى عيالي، أواسيهم ما بَقُوا، ولا يَسَعُني شيءً ويَعْجِزُ عنهم!

وكأنَّ عمير كان ينتظر ما قاله صفوانُ على أحرَّ من الجمر فقال:

إذن سأقوم من توّي بهذه المهمة دون تأخير... ولكنِ اكتم شأني وشأنَك. فقال صفوان: سيبقى هذا الأمر بيننا، لا يعرفه أحدٌ سوانا.

توجّه عمير بن وَهْب الجُمَحِيّ إلى سيفه، فَشَحَذَهُ جيداً ثم طلاه بالسُّمّ، ثم انطلق بعد ذلك إلى المدينة وقد بَيَّتَ في نفسه أخبث نية، وعزم على ارتكاب أكبر جريمةٍ يمكن أن تحدث في الأرض، جريمة اغتيال خاتم الأنبياء والمرسلين عليه أفضلُ الصلاة وأتمُّ التسليم!

وبينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المدينة المنورة يتحدث مع جماعةٍ من المهاجرين والأنصار عن بدر، ويشكرون الله سبحانه وتعالى على ما أكرمهم الله به في تلك المعركة، وما أراهم فيها من النصر المؤزر على أعدائهم، إذْ وَقَعَ نَظَرُهُ على عمير ـ هذا القادمِ من مكة ـ يُنيخ راحلته على باب المسجد، وقد توشَّح بالسيف، فقال عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه لصحبه: هذا عميرُ بنُ وَهْب، واللهِ ما جاء إلّا لشرّ! هذا الذي أَفْسَدَ بيننا يوم بدر، وقَدّر عددنا لقومه المشركين... ثم دَخَلَ عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه مسرعاً على رسول الله ﷺ وقال: يا نبيَّ الله، هذا عدوُّ الله عُمير بنُ وَهْب واقفٌ بالباب جاء متوشِّحاً سيفه...! فقال عليه الصلاة والسلام: أدْخله عليّ يا عمر!

فأقبل عمر رضي الله عنه على عمير، فأخذ بحِمالةِ سيفه في عنقه فلبَّبه بها.

وقال لرجال ممن كانوا معه: أدْخُلوا على رسول الله ﷺ، فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون....

ثم دَخَلَ به على رسول الله ﷺ... فلما رآه عليه الصلاة والسلام، وعمرُ آخذٌ بحِمالة سيفه في عنقهِ قال: أرسلْه يا عمر... أُدْنُ يا عُمير!... فدنا عميرٌ ثم قال: إنْعَموا صباحاً أيها القوم. وكانت هذه التحية تحيةَ أهلِ الجاهلية فيما بينهم، فقال رسول الله ﷺ: قد أكْرَمَنا الله بتحيةٍ خيرٍ من تحيتكِ يا عُمير. قد أكرمنا الله بالسلام، تحية أهلِ الجنة. فقال عمير: أما والله يا محمد إنْ كنتُ بها لحديثَ عهد!

ثم قال عليه الصلاة والسلام: ما جاءَ بك يا عمير؟

قال عمير: جئتُ لابني الأسير الذي في أيديكم أسألكم أن تُحْسِنوا فيه!

فقال عليه الصلاة والسلام: فما بالُ السيفِ في عنقك؟

قال عمير: قَبَّحها الله من سيوف، وهل أَغنتْ عنا شيئاً في بدر!

فقال عليه الصلاة والسلام: أُصْدُقْني ما الذي جئتَ من أجله؟

فقال عمير: لقد صَدَقْتُكَ ما جئتُ إلّا من أجلِ ابني الأسير!

فقال عليه الصلاة والسلام: بل قَعَدْتَ أنت وصفوانُ بنُ أميةَ في الحِجر فذكرتما قتلى بدرٍ من قريش، ثم قلت: لولا دَيْنٌ عليّ، وعيالٌ عندي، لَخَرَجْتُ حتى أقتل محمدا! فَتَكَفَّلَ لك صفوانُ بِدَيْنِك وعيالك، على أن تقتلَني له... واللّهُ حائلٌ بينَك وبَيْنَ ذلك!

فَشُدِه عمير من شدّة تعجبه وصاح: أشهد أنك رسولُ الله... أشهد أنّك رسولُ الله... ثم توقف قليلاً وقال: قد كنّا يا رسول اللهِ نكذّبك بما كنتَ تأتينا به من خبر السماء، وما يَنْزلُ عليك من الوحي... وهذا الأمر الذي جئتُ من أجله لم يَحْضُرْهُ أو يسمعْ به إلّا أنا وصفوان، فوالله إنّي لأعلمُ ما أتاكَ به،

وأُخْبِرَكَ عنه إلّا الله، فالحمد لله الذي هداني إلى الإسلام، وساقني هَذَا المساق، وإنني أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أنّ محمداً رسول الله. . .

فقال رسول الله ﷺ : فَقِّهوا أخاكم في دينه، وأَقْرِؤوه القرآن، وأَطْلِقُوا له أسيرَه. . .

ثم جاء عميرُ بن وهْب رضي الله عنه بعدما أكرمه الله بالإسلام إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله إني كنت جاهداً على إطفاء نور الله، شديدَ الأذى لمن كان على دين الله عزّ وجلّ، وأنا أُحبُّ أن تأذَنَ لي، فأقدَمَ مكة، فأدعوَ أهلها إلى الله تعالى، وإلى رسول الله ﷺ، وإلى الإسلام، لعلّ الله أَنْ يَهْدِيَهم، وإلّا آذيتُهم في دينهم، كما كنت أوذي أصحابَك في دينهم !

فأذِن له رسولُ الله ﷺ فَلحق بمكة. . .

أمّا صفوان بنُ أمية ـ شَرِيكُ عمير في المؤامرة ـ فقد كان يقول للناس في مكة بعد خروج عميرٍ إلى المدينة: أَبْشِروا بوقعةٍ تأتيكم قريباً تُنْسيكم وقعة بدر. . . وكان ـ أي صفوان ـ لا يترك واحداً من الركبان القادمين من المدينة إلّا وسأله عن عمير بن وهْب. . . إلى أن جاءه راكب فأخبره بإسلام عمير، وإيمانِهِ بالله، واتّباعه لرسولهِ، فأُسْقط في يد صفوان بن أمية، وحلف أَنْ لا يكلمَ عميراً أبداً، وأن لا ينفعه بِنَفْعٍ أبداً.

وبعد،

لئن تضافرت كل قوى الشرّ؛ النفسُ الأمّارة بالسوء، الهوى المهلك، الثأرُ الحاقد، قرينُ السُّوء يقودها إبليس اللعين، لئن تضافرت هذه القوى كلُّها، وتعاونت، وتحالفت على أن تجعل من عمير بن وهب الجمحي إنساناً شقياً، لا بل أشقى أشقياء بني الإنسان، فتغتالَ به منقذَ البشرية، خاتمَ الأنبياء والمرسلين محمداً بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه، فقد أراد الله سبحانه وتعالى غير

ذلك... أراد العليُّ القدير، أراد بحكمته ولطفه وعنايته أن يَسْعَدَ عميرُ بن وَهْبَ الجمحي بالإسلام، ويتفيّأ بظلالِ القرآن، وينعم بصحبةِ رسول الله عليه الصلاة والسلام.

قال ابن إسحق: فلما قَدِم عُمَيْرٌ مكة بعد استئذانه من رسول الله ﷺ أقام فيها يدعو إلى الإسلام، ويؤذي من خالفه أذى شديداً. وقد أسلم على يديه خَلْقٌ كثير.

أيها الإخوة والأخوات
تلك هي بركة النبوة،
وذلك فضلها وعظمتها وتأثيرها

تنشر النورَ فيتبددُ الظلام، وتُحِق الحقّ فَيَزْهَقُ الباطل، وتُحِلّ في القلوب حلاوةَ الإيمان، ودفءَ السعادةِ والإطمئنان.

وصدق الله العظيم حيث يقول:

﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمُهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبلُ لفي ضلالٍ مبين﴾[1].

وحيث يقول:

﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشِّراً ونذيراً. وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾[2].

---

(١) سورة الجمعة: الآية ٢.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٤٥ ـ ٤٦.

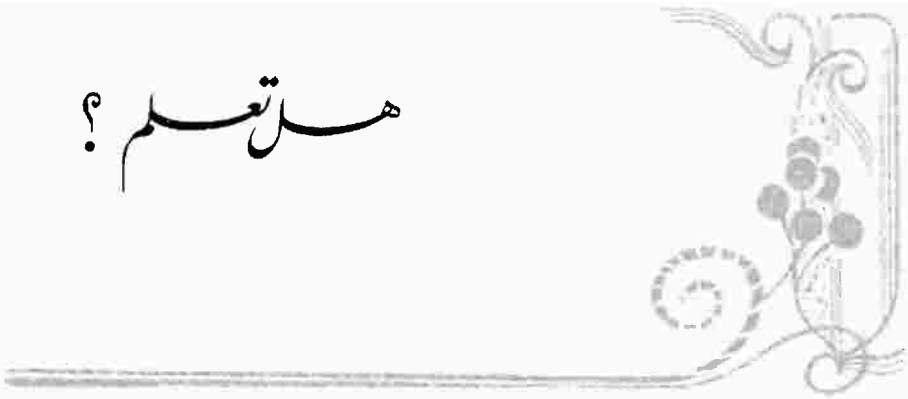

هل تعلم ؟

● هل تعلم أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قدّم مالَه كلَّه في سبيل الله وإرضاءً لقلب رسول الله ﷺ ؟ وأنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قدّم نصفَ ماله ؟

● وهل تعلم أنّ عثمان بنَ عفّان رضي الله عنه قام وحده تقريباً بتجهيز جيش كامل هو جيش العسرة الذي قام بغزوة تبوك... جَهَّزَه بالمال والسلاح والعتاد والرواحل، مما جعل رسولَ الله ﷺ يدعو لعثمان طيلة ليلة كاملة ويقول: اللهم إنّي قد بِتُّ راضياً عن عثمان... اللهم فارض عنه...

● وهل تعلم أنّ عبد الرحمن بنَ عوف قد أنفق وصيته في حياته، وكانت ثُلُثَ ما يملك... وقد وزّع القسم الأكبر منها على الفقراء والمساكين، والغارمين، وفي سبيل الله حتى لم يتبق حينئذٍ فقير ولا محتاج.... ثم نادى بأعلى صوته: يا أصحابَ رسولِ الله، كلُّ من كان من أهل بدر، له عليَّ أربعُ مائة دينار.... فقام عثمانُ بن عفّان رضي الله عنه ليأخذ نصيبه! فقيل له: يا أبا عمرو ألستَ غنياً ؟! فقال: نعم لكنّ هذه صِلةٌ لا صدقة، وهي من مالٍ حلال...

● وهل تعلم أنّ مجموع ما وزِّع كان مائة وخمسينَ ألفَ دينار ذهبي ؟!

● **وهل تعلم أنّ عمرَ بن عبد العزيز رضي الله عنه، بَعَثَ يحيى بن سعيد إلى إفريقيا لِيَجْمَعَ زكاةَ أهلها ويوزعها على مستحقيها. . . فلما انتهى من جمع الأموال، فَتَّش عن الفقراء، فلم يجد بين الناس فقيراً. . . .** مما جعله يُنْفِق تلك الأموال في شراء الأرقاء (العبيد) وتحرير رقابِهم في سبيل الله.

● **وهل تعلم أنّه لما نزل قولُ الله تعالى: ﴿مَنْ ذا الذي يُقْرِضُ الله قرضاً حسناً فيضاعِفَهُ له﴾ جاء أبو الدحداح الصحابي الأنصاريُّ رضي الله عنه، جاء إلى رَسول الله ﷺ يقول له مستوضحاً: أو يستقرضُ الله منّا يا رسول الله ؟ ! فيجيبَهُ الرسول عليه الصلاة والسلام: نعم يا أبا الدحداح.**

فيقول أبو الدحداح: أرني يَدَك يا رسول الله.

فناوله عليه الصلاة والسلام يَدَه، **فقال أبو الدحداح: أُشْهِدُكَ على نفسي يا رسولَ الله أني قد أقْرَضْتُ بستاني إلى ربّي عزّ وجلّ (وكان فيه ستُّ مائة نخلة) فتهلَّلَ وَجْهُ رسولِ الله ﷺ وقال: كم من عذْقٍ رداح في الجنة لأبي الدحاح.**

ثم انطلق هذا المسلم العظيم إلى البستان وكان فيه زوجتُه وأولاده، فقال: يا أُمَّ الدحداح أُخرجي وأَخْرِجي معك الصبيانَ من البستان، فقد أقرضتُهُ لله عزّ وجلّ !

فإذا بأم الدحداح تلك الصحابيةِ الجليلة والزوجةِ الصالحة تهنّي زوجها وهي تسارع إلى جمع صبيانها للخروج من البستان، وتقولُ له: ربح بيعُك يا أبا الدحداح. . . رَبِحَ بيعُك يا أبا الدحداح. . .

● **وهل تعلم أنه كان يوجد في (دمشق) وَقْف اسمُهُ (وقفُ الزبادي) اختَصَّ بمساعدة الخدم والأطفال** الذين قد تنكسر في أيديهم بعض الأطباق أو الصحون أو الأواني في أثناء استعمالها، ويخشون من غضب آبائهم أو

مواليهم. . . فيذهبُ واحدهم إلى هذا الوقف مصطحباً معه صحنه المكسور ليأخذ بدلاً منه صحناً سليماً ؟ !

● **وهل تعلم أن الملعب البلدي الشهير في (دمشق) أيضاً كان في الأصل ساحات شاسعة من مروج العشب والحشائش وكان وقفاً على الخيول ودوابّ الركوب الأخرى** المسنّة أو المريضة أو المصابة تساق إليه لتسكنَ وتأويَ وتأكلَ وترعى دونما عناء.

● **وهل تعلم أنه كان في مدينة (فاس) بالمغرب وقفٌ للثياب**؛ فمن كان مارّاً في الطريق وتمزّق ثوبه أو أصابه شيءٌ لوّثه فجعله غيرَ صالح للارتداء. . . يمكنه أن يذهب إلى ذلك الوقف ويختار ثوباً جديداً نظيفاً بدلَ ثوبه الممزق أو الملوّث ؟ !

● **وهل تعلم أنه كان يوجد في مدينة (فاس) أيضاً وقف يسمى (مؤنس العليل) تُدْفَعُ منه إعانات للمؤذنين ذوي الأصوات الجميلة**، ليبكّروا في الصعود إلى المآذنِ قبلَ الفجر، ويترنّموا بالابتهالات والتسابيح ليسمعَهم من أسهره المرض، وأرّقه الألم وجفاه النوم، فيأنسَ بتلك الأصوات، ويستريح إلى تلك المعاني، ويسلوَ عما به من مرض واغتمام.

● **وهل تعلم أنه كان يوجد في (مُرّاكِش) وقفٌ كبير تم تخصيصه للنساء اللواتي يَقَعُ خلاف فيما بينهنَّ وبين أزواجهنّ**. . . . ففي إمكان المرأة التي يقع خلافٌ بينها وبين زوجها أن تذهب إلى ذلك الوقف، وتقيمَ فيه ما شاءت دون مِنَّةٍ من أحد إلى أن ينتهي الخلاف بينها وبينَ زوجها بالوفاق والعودة إلى بيته، أو بالطلاق والذهاب إلى بيت أهلها ! ؟

● **وهل تعلم أنه كان في (تونس) وقْفٌ يسمى (وقف الحمّام) اختص بالذين يودُّون الاستحمام ولا يمتلكون أجرته** ! ففي إمكان الواحد من هؤلاء أن يذهب إلى ذلك الوقف ويستلم صُرّةً صغيرة تحتوي على الأجرة المطلوبة ! ؟

● وهل تعلم أن المسلمين السابقين طيّب الله ثراهم، كثيراً ما أوقفوا العقَاراتِ، والأطيانَ، والبساتينَ، والدكاكين، والحمّاماتِ وغيرها، ورصدوا ريعها لمساعدة الفتياتِ الفقيرات أو غير الجميلات اللواتي في سنّ الزواج، وذلك للترغيب بالزواج منهنّ ؟ أو للعناية بالمكفوفين، أو افتداء الأسرى، أو رعاية المقعدين والعاجزين ! ؟

● وهل تعلم أنه كانت في بلادنا الإسلامية أوقافٌ لتمهيد الطرق ورصف الشوارع . . . وأوقاف لشراء مكافآت وجوائزَ للمتفوقين من تلامذة الكتاتيب وأوقافٌ لسقاية العِطاش أشربةً مثلجة بالمجّان في أيام الحرّ والقيظ . . . وأوقاف لإطعام الحيوانات الضالّة ! ؟

وبعـــد،

فهذه هي أمتنا الإسلامية، وهـذا هو المجتمـعُ الإسلاميُّ المتكـافلُ المتراحم، الذي لا يتردد فيه الغنيّ من أن يبذل مالَهُ كلَّه في سبيل الله، إذا دعا داعي الواجب إلى ذلك.

هذا هو المجتمع الإسلامي المتكافل المتراحم الذي لا يقرّ فيه للميسور قرار ولا يهنأ له عيش، حتى يطمئنَّ إلى أنّ أهله وقرابتَهُ وأرحامَهَ وجيرانَه في خيرٍ وكفاية، لا تنقصهم حاجة ولا يعوزهم شيء.

هذا هو المجتمع الإسلامي الخيّر، يتعاون فيه الحاكمُ والمحكوم، الدولة والشعب، الأمراءُ والعلماءُ والأغنياءُ، على مكافحةِ الفقر وأسبابه، والأخذِ بيد الضعفاء والمساكينِ والمدينينَ وذوي الحاجات، إلى ميادين القوةِ والكفايةِ واليسار.

ولم يكتف هذا المجتمع الإسلامي الفاضل بمكافحة الفقر والقضاء على أسبابه، وتحقيق اكتفاء الفرد في طعامه وشرابه ولباسه وسكنه وباقي احتياجاتِهِ

المادية والمعنوية، **بل تقدّم خطوة أوسع فوصل المنقطعين، ورعى المسنين والمكفوفين، وآوى العجزة والمقعدين، وحرر رقاب العبيد، وافتدى الأسرى..**

ثم قفز هذا المجتمع الإسلاميُّ العظيم، قفزةً بل قفزاتٍ وكان في كلِّ واحدةٍ منها رائداً سبّاقاً حين أوقف أغنياؤه أوقافاً من ممتلكاتهم، تنفق ثمراتُها وعائداتُها لإغناء امرأة فقيرة ليرغب الخاطبون بالزواج منها، أو لإيناس مريضٍ عليل بصوت شجي وكلمة ندية تخفّف عنه الألم وتباعد عنه الوحشةَ والاكتئاب، أو لمساعدة ولدٍ أو خادم انكسَرَ الإناءُ الذي كان في يده فأصبح في حَيْرةٍ من أمره كيف يواجه أباه الغضوب أو سيدَه الحيسوب، أو لدفع الحرج عن إنسانٍ اتّسخ ثوبُهُ في الطريق ولا يجد سبيلاً إلى العودة إلى بيته لتغييره، وعن إنسان آخر يرغب في الاغتسال يومَ الجمعة وليس عنده أجرة دخول الحمّام...

وأخيراً وليس آخراً فإن أغنياءَ هذا المجتمع الإسلامي الفريد، لم يَنْسَوْا حالَ المرأة التي تختلفُ مع زوجها وليس لها أهلٌ وعشيرة، وحالَ عابرِ السبيلِ العطشان، وحالَ البهيمة الضالة الجائعة، وحالَ البهيمة المريضة أو المسنة أو المصابة.

فأوقفوا للمرأة المنقطعة بيتاً تأوي إليه معززة مكرّمة حتى تنتهي مشكلتُها مع زوجها، وأقفوا لعابر السبيل العطشان في أيام القيظ شراباً بارداً سائغاً، وأوقفوا كذلك للبهائم الضالة والمريضة والمسنة الأماكنَ الفسيحة لِتَجِدَ فيها ماءَها ومرعاها ومستراحها ومأواها.

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

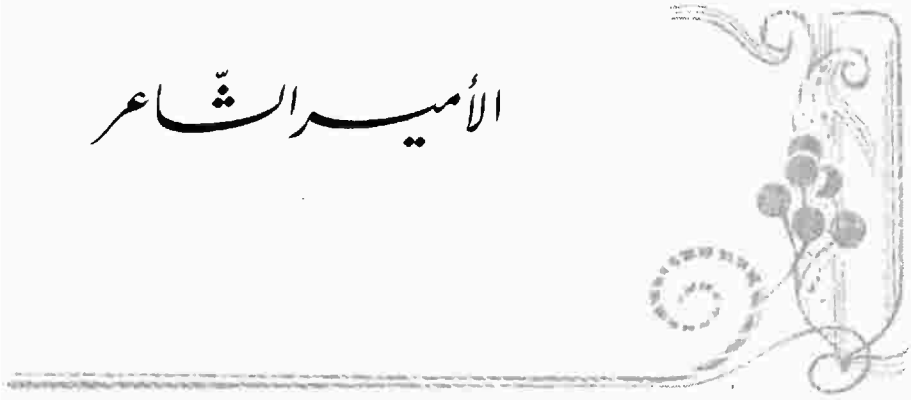

الأمير الشاعر

استعدَّ الركب المؤمن، ركبُ الجهاد في المدينة المنورة للخروج إلى (مؤته) في شمالِ الجزيرة العربية وجنوبِ الشام، بأمر رسول الله ﷺ لمواجهةِ الطغاةِ الرومان الذين آنَ لدولتهم الظالمة أن ينحسر ظلها عن بلاد العرب، لِتُفْسِحَ الطريق لدعوة الحق والنورِ والإيمان... فقد أنزَلَ الله قولَه المحكم: ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يَلُونَكُم من الكفّار وَلْيَجِدوا فيكم غِلْظَةً واعلموا أنّ الله مع المتقين﴾[1].

وَتجهّز هذا الركب في ثلاثة آلاف من المهاجرين والأنصار في صفوف منتظمة متراصّة، يتلهف كلُّ فردٍ فيها إلى ساحة الجهاد لِيَفُوز بالنصر المؤزر أو الشهادةِ في سبيل الله...

ووقف رسول الله ﷺ بعد أن جَعَلَ قيادةَ هذا الجيش لزيد بنِ حارثةَ رضي الله عنه، يوصي هؤلاء المجاهدين وهو يودِّعُهم بتقوى الله عزّ وجلّ والصبرِ والثبات عند اللقاء، والتعاون والتراحم فيما بينهم... ثم قال: فإن أصيب زيدُ بنُ حارثة، فجعفرُ بنُ أبي طالبٍ على الناس، فإن أصيب جعفر فعبدُ

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٢٣.

الله بنُ رواحةَ على الناس. . .

وفرح الأنصار رضوان الله عليهم فرحاً شديداً وهَلَّلوا وكبّروا فقد شرّفهم رسول الله ﷺ بالمشاركة في قيادة المسلمين من خلالِ عبدالله بن رَواحة كما شرّف المهاجرين رضوانُ الله عليهم سواء بسواء. . .

وهيمن جلالُ الموقف على نفس عبدالله بنِ رَواحة رضي الله عنه، بعدما استشعر من كلام رسول الله ﷺ بأن زيداً وجعفر سيكونان من الشهداء، وخشي أن يكون دونَ المهاجرَيْن الكريمين إيماناً وإقداماً. . . فاستعبر وصارت عيناه تذرفان، فقال له بعض المودّعين من الأنصار: ما يُبكيكَ يا ابنَ رَواحة ؟ فأجَاب رضي الله عنه: أما والله ما بي حبُّ الدنيا ولا صبابةٌ إليها، ولكني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يتلو قولَ الله عزّ وجل عن جَهنّم: ﴿وإنْ منكم إلاّ واردُها كان على ربِّك حتماً مقضياً﴾[1] فلست أدري كيف لي بالصَّدَرِ بعد الورود ؟ أي: لست أدري كيف الخروجُ من جهنم بعد دخولها.

فهزّ هذا الكلام المؤثر قلوبَ المودّعين، وَرَدُّوا عليه بالدعاء قائلين: صَحِبَكم الله في جهادكم، وحَفِظكم في أنفسكم، وردّكم إلينا سالمين غانمين.

لكن عبدالله بن رَواحة لم يكن مرادَه وما يتمناه أن يعودَ سالماً من ساحة الجهاد بل أن يَقْضِي شهيداً بين ضرب السيوف، وطعن الرماح، ويكونَ حديثُهُ بعد موته لكلِّ من يمرُّ على قبره مضربَ الفخر والرفعة والاعتزاز فأجاب مودعيه قائلاً:

لكنّني أسـأل الـرحمن مغفـرةً ... وضربةً ذاتَ فَرْغ تَقْذِفُ الزبدا
أو طعنـةً بيَـدَيْ حـرّانَ مُجْهـزَةً ... بحـربةٍ تُنْفِـذُ الأحشَـاء والكَبـدا
حتى يُقال إذا مرُّوا على جَدَثي ... أرشـده الله من غازٍ وقـد رَشَدَا

(١) سورة مريم: الآية ٧١.

ومصى الركبُ الإسلاميُّ المجاهد في طريقه إلى أن نَزَلَ في (معان) جنوبَ بلاد الشام... وهناك جاءت الأخبار بتحرك (هرقل) قائد الروم على رأس جيش قِوامه مائةُ ألفٍ من الرومان ومائةُ ألف من العرب الذين يحكمهم الرومان...

واهتمّ المسلمون بالأمر، وأصابَهم غَمٌّ شديد، وأخذوا يُنْعِمون النظر والتفكير في هذا الموقف الخطير حتى قال بعضهم: الرأي أن نكتب إلى رسول الله ﷺ وَنُخْبِرَه بِعَدَدِ عدوّنا؛ فإمّا أن يُمِدَّنا بالرجال، وإمّا أن يأمرَنا بأمره فنمضيَ إليه...

واستأذن عبدالله بن رواحة... استأذن قائدَ الجيش زيدَ بنَ حارثةَ بالكلام.... ثم قام خطيباً وَقال:

يا قوم، والله إنّ التي تكرهون، لَلَّتي خرجتم تطلبون... إنّها الشهادة... وواللهِ الذي لا إله إلّا هو إننا لا نقاتل الناسَ بعدد ولا قوةٍ ولا كثرة، ولكننا نقاتِلُهم بهذا الدين الذي أكرمَنَا الله به.... فانطلقوا على بركةِ الله... وسيروا في سبيلِ الله فإنّما هي إحدى الحسنيين: إمّا النصر وإمّا الشهادة.

وَفَعلت هذه الكلمات الصادقةُ القويةُ المخلصة فِعْلَها في نفوس الجندِ وقلوبهم فجعلتها كالجبال الراسيات في الثبات والإقدام، وارتفعت الأصوات بهتافٍ واحد:

صدق والله ابنُ رَواحه... صدق والله ابنُ رَواحه.

وبدأتِ الحرب، وتلاحم الجمعان... ولكنْ دون أي تكافؤ بين الجيشين... وكيف يكون تكافؤ وتعدادُ جيش الكفر مائتا ألف محارب بينما لا يزيدُ تعدادُ جيشِ المسلمين على ثلاثة آلاف...

وَرَغْم هذا كله فقد سارع المؤمنون الصادقون إلى الشهادة، وتسابقوا إلى لقاء الرحيم الرحمن.

وانطلق الأمير الأول زيدُ بنُ حارثة رضي الله عنه إلى معمعانِ المعركة وظلَّ يبارزُ ويناجز حتى قضى شهيداً في سبيل الله، **فحمل اللواء، لواءَ القيادة من بعده، جعفرُ بنُ أبي طالب رضي الله عنه فظلَّ يقاتل ويجاهد،** ويصبر ويصابر حتى قَطَّعَتْ أطرافَه السيوف، واخترقت جسمَه الرماح، فقضى شهيداً في سبيل الله . . .

وجاء دَوْرُ الأمير الثالث، الأمير الشاعر عبدالله بن رَواحة، فسارع إلى حمل اللواء. . . فإنتابته رعدةٌ رهيبة، ما لبث بعدها أَنْ خاطب نفسَهُ قائلاً:

يا نفس، إلى أي شيءٍ تتوقين ؟ إلى امرأتي ؟ فهي طالق. . . إلى غِلماني ؟ فهم أحرار. . . إلى مالي ؟ فهو في سبيل الله !. . . ثم رمى بنفسه وَسْطَ الميدان فاستقبلته السيوف والرماح تتناوشُهُ وتطعَنُهُ حتى قضى شهيداً في سبيل الله وارتقى سدةَ المجاهدين المفلحين الأبرار. . . .

وفي المدينة المنورة. . . وقف رسولُ الله ﷺ بين أصحابه يُعْلِنُ النبأ ساعة وقوعه، وكأنه شاهد عيان للحرب ويقول:

أخذ زيدُ بنُ حارثة الراية فقاتل بها حتى قُتِل شهيداً. ثم أخذها جعفرُ بنُ أبي طالب فقاتل بها حتى قُتِل شهيداً. . . ثم صمت الرسول عليه الصلاة والسلام حتى تغيّرتْ وجوهُ الأنصار، وظنُّوا أنّه قد كان في ابنِ رَواحةَ ما يكرهون. . . ولم يَطُلْ تخوفُهم، فقد انطلق لسان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: ثم أخذ الراية عبدُالله بنُ رَواحة فقاتل بها حتى قُتِل شهيداً.

وَجَهِشَ الناس بالبكاء على الأمراء الثلاثة، وارتفعت أصواتُهم لهم بالدعاء، فقد كانوا من أعلام المهاجرين والأنصار الذين صدقُوا ما عاهدوا الله عليه.

وصلى المسلمون صلاةَ المغرب وصلاةَ العشاء خَلْفَ رسولِ الله ﷺ،

وما يقدر أحدٌ أن يَنْظُرَ إلى وجهه عليه السلام، لِفُرْطِ ما ملأه من الحزنِ العميق.

وحضر المسلمون صلاة الصبح من اليوم التالي، فإذا بِغَمِّهِ عليه الصلاة والسلام ينقلب إلى إشراق، وإذا به عليه الصلاة والسلام يستدير إلى جموعِ المصلين في المسجد ووجهُهُ متهلل باسم...

فقال بعض الصحابة: يا نبيّ الله بأنفسِنا أنت... ما يَعْلَمُ إلا الله ما كان بنا من الوَجْد والحزن منذ رأينا منكَ الذي رأينا ؟ !

فقال عليه الصلاة والسلام: كان الذي رأيتم مني أنّه أَحْزَنَني قتلُ أصحابي، حتى رأيتُهم في الجنّة على سررٍ متقابلين.

ومرت الأيام والسنون، فإذا بأبي الدرداء صاحِب رسول الله ﷺ، يقف في حَلْقَةٍ من حلقات المسجد، ويتحدث عن الأميرِ الشاعر عبدالله بنِ رواحه وعيناه تذرفان ويقول:

أعوذ بالله أن يأتي يومٌ، لا أذكر فيه عبدالله بنَ رَواحه... كان إذا لَقِيني يقول: يا عويمر، إجلسْ فَلْنؤمنْ ساعة... فنجلسُ، فنذكرُ الله ما يشاء الله... ثم يقول: يا عويمر هذا هو الإيمان... هذا هو الإيمان.

كيف لو رأوها ؟

● عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدريِّ ـ رضي الله عنهما ـ قالا:
قال رسولُ الله ﷺ:

إنّ لله ملائكةً سيَّاحين في الأرض فَضْلاً عن كُتَّاب الناس، فإذا وجدوا أقواماً يذكرون الله، تَنَادَوْا هلمُّوا إلى بُغيتِكم، فيجيئون فَيَحُفُّون بهم إلى سماء الدنيا، فيقولُ الله: على أيّ شيء تركتم عبادي يصنعون ؟ فيقولون: تركناهم يَحْمَدونك ويُمَجِّدونك ويذكرونك. قال، فيقول: فهل رأَوْني ؟

فيقولون: لا.

قال: فكيف لو رَأَوْني ؟

فيقولون: لو رَأَوْكَ لكانوا أشدَّ لك تحميداً، وأشدَّ تمجيداً، وأَشَدَّ لك ذكرا.

قال، فيقول: وأيَّ شيء يطلبون ؟

قال، فيقولون: يطلبون الجنّة.

قال، فيقول: وهل رَأَوْها ؟

قال، فيقولون: لا.

قال، فيقول: فكيف لو رَأَوْها ؟

قال، فيقولون: لو رَأَوْها كانوا أشدَّ لها طلباً، وأشد عليها حرصا.

قال، فيقولون: من أيّ شيء يتعوّذون ؟

قالوا: يتعوذون من النار.

قال، فيقول: وهل رَأَوْها ؟

فيقولون: لا.

فيقول: فكيف لو رَأَوْها ؟

فيقولون: لو رَأَوْها كانوا أشدَّ منها هرباً، وأشدّ منها خوفاً، وأشدَّ منها تعوذاً.

قال، فيقول: فإنّي أُشْهِدُكم أنّي قد غفرت لهم.

فيقولون: إنّ فيهم فلانَاً الخَطَّاء لم يُرِدْهم، إنّما جاء لحاجة.

فيقول: هم القوم لا يَشْقى لهم جليس[1].

● عن أبي أسحق، عن الأغرّ أبي مُسْلِم، أنَّه شهد على أبي هريرة، وأبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنهما، أنّهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال:

إذا قال العبد: لا إله إلاّ الله والله أكبر، قال: يقول الله عز وجل: صدق عبدي، لا إله إلاّ أنا، وأنا الله أكبر. وإذا قال العبد: لا إله إلا وحده، قال: صدق عبدي، لا إله إلاّ أنا وحدي.

وإذا قال العبد: لا إلهَ إلاّ الله وحده لا شريك له. قال؛ صدق عبدي؛ لا إله إلاّ أنا ولا شريكَ لي.

وإذا قال العبد: لا إله إلاّ الله، له المِلكُ وله الحمد. قال: صدق عبدي.

---

(١) قال الترمذي: حديث حسن صحيح. كتاب الأحاديث القدسية ج ١ ص ٢٠ ـ دار الكتاب العربي ببيروت ١٩٨٥ م.

لا إله إلاّ أنا لِيَ الملكُ وَلِي الحمد.

وإذا قال العبد: لا إله إلاّ الله، ولا حولَ ولا قوةَ إلاّ بالله. قال: صدق عبدي، لا إله إلا أنا، ولا حولَ ولا قوةَ إلاّ بي.

قال أبو إسحق: ثم قال الأغرُّ شيئاً لم أفهمْه، قال: فقلت لأبي جعفر: ماذا قال الأغرّ ؟

فقال أبو جعفر، إنه يقول: ﴿من رُزِقَهُنَّ عند موته لم تمسَّهُ النار﴾[1].

● عن عبد الله بنْ عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ حدَّثهم أنّ عبداً من عبادِ الله قال؛ يا ربِّ، لك الحمد، كما ينبغي لجلالِ وجهك، ولعظيم سلطانك؛ فَعَضَلتْ بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانِها ـ أي اشتدت على الملكين الموكلين بإحصاء أعمال القائل، فلم يعلما مقدار ما يُكْتَبُ لها من الثواب ليكتباه لقائلها ـ فصعِدا إلى السماء، وقالا: يا ربَّنا، إنّ عبدك قال مقالة، لا ندري كيف نكتبها !

فقال الله عزّ وجلّ ـ وهو أعلمُ بما قال عبدُه ـ : ماذا قال عبدي ؟

فيقولُ الملكان: يا رب إنه قال: يا ربّ لك الحمد كما ينبغي لجلالِ وجهك وعظيم سلطانك.

فيقول الله عزّ وجلّ لهما: اكتباها كما قال عبدي، حتى يلقاني فأجزيَه به[2].

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال النبيُّ ﷺ: يقول الله تعالى:

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه ـ المصدر السابق.

(٢) أخرجه النسائي في سننه ـ المصدر السابق.

أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني. فإنْ ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في مَلأٍ، ذكرتُهُ في مَلأٍ خيرٍ منهم. وإنْ تقرّب إليّ بشبر تقربْتُ إليه ذراعاً. وإن تقرّب إليّ ذراعاً، تقرّبْتُ إليه باعا. وإن أتاني يمشي أتيته هرولة[1].

● وقال رسول الله ﷺ:

قال الله عزّ وجلّ: يا ابنَ آدم أمرتُك فتولَّيْت، ونَهَيْتُك فتماديت، وسَتَرْتُ عليك فتجرّأت، وأَعْرضْتُ عنك فما باليت...

يا مَنْ إذا مرض شكا وبكى، وإذا عوفِيَ تمرّد وعصى...

يا مَنْ إذا دعاه العبيد عدا ولبّى، وإذا دعاه الجليل أعرض وتأبّى...

إنْ سألتَني أعطيتكُ. وإن دعوتَني أجبتُك. وإنْ مَرِضتَ شفيتك. وإنْ أقبلتَ قَبِلْتُك، وإن تبتَ غفرتُ لك وأنا التوّاب الرحيم.

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

(قال رسول الله ﷺ: يقول الله عز وجل: أعددتُ لعبادِيَ الصالحين ما لا عينٌ رَأَتْ ولا أُذُنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر). قال أبو هريرة: إقرؤوا إن شئتم ﴿فلا تَعْلَمُ نفسٌ ما أُخفي لهم من قُرَّةِ أعين﴾[2]

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: (للجنّة أبواب، فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة. ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة. ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد.

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد. المصدر السابق.

(٢) سورة السجدة: الآية ١٧.

فقال أبو بكر: يا رسولَ الله ما على أحدٍ ضرورةٌ من إيّها دُعي ؟ فهل أَحَدٌ يُدْعى منها كلِّها ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: نعم وأرجو أن تكون منهم).

● وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

(في الجنّة ثمانيةُ أبواب، فيها باب يسمى الريّان لا يدخله إلا الصائمون).

● وعن عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

(ما منكم من أحدٍ يتوضأ فيُسْبِغ الوضوء ثم يقول أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهدُ أنّ محمداً عبده ورسوله إلاّ فُتِحت لَه أبوابُ الجنّةِ الثمانيةُ يَدْخُلُ من أيِّها شاء).

● وعن عُتْبَةَ السلميّ رضي الله عنه قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول:

(ما من عبدٍ يموتُ له ثلاثةٌ من الولد لم يبلغوا الحِنْث ـ أي لم يصلوا إلى سن البلوغ ـ إلاّ تَلَقَّوْه في أبواب الجنّة الثمانية أيّها شاء دخل).

● وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

(إذا صلَّتِ المرأةُ خمسَها وصامتْ شهرَها وحَفَظِتْ فرجَها وأطاعت زوجَها قيل لها ادخلي من أيّ أبواب الجنّةِ شئت).

● وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال:

(إنّ في الجنّة مائةَ درجة ما بين كلّ درجتين كما بين السماءِ والأرض، والفردوسُ أعلاها درجة، ومِنْ فوقها العرش، ومنها تَفَجَّرُ أنهارُ الجنّة الأربعة فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس).

● وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

(إنّ في الجنّةِ درجةً لا ينالُها إلّا ثلاثة؛ إمامٌ عادل، وذو رَحِمٍ وصول، وذو عيالٍ صبور).

● وعن أبيّ بن كعب رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال:

(من سَرّه أن يُشْرفَ له البنيان، وتُرْفَعَ له الدرجات، فليعفُ عمن ظلمه، ويصلْ من قطعه، ويُعْطِ من حرمه).

● وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

(إنّ في الجنةِ غرفاً يُرى ظاهرُها من باطنِها وباطنُها من ظاهرِها أعدّها الله لمن أطعم الطعام وألان الكلام وتابع الصيام وصلى بالليل والناسُ نيام).

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلنا يا رسولَ الله حدِّثنا عن الجنّةِ ما بناؤها ؟

قال؛ لَبِنةٌ من ذهب ولبنةٌ من فضّة، وحصباؤُها اللؤلؤ والياقوتُ، ومِلاطُها المِسك، وترابُها الزعفران، من دخلها؛ يَنْعَمُ لا يبأس، ويَخْلُدُ لا يموت، لا تَبْلَى ثيابُه ولا يَفنى شبابُه.

تلاقى جماعة من أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام، في خلافة أمير المؤمنين عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه، فقال بعضُهم لبعض:

أَلَا ترون يا معشرَ المهاجرين والأنصار إلى زهدِ أمير المؤمنين في مأكله ومشربه وملبسه.. ! ؟ لقد فتح الله على يديه ديارَ كسرى وقيصر، وطرفي المشرق والمغرب، وها هي وفودُ العرب والعجم يأتون إليه فيرون عليه هذه الجبَّةَ العتيقة قد رَقَّعها اثنتي عشرة رقعة... فلو سألتموه أن يغيّرها إلى ثوبٍ ليّن جديد يُهاب فيه منظرُه، وأن يُبْدِلَ طعامَه الخشن القليل بطعامٍ طيب هنيء يَقْوَىٰ به بدنه...

واتفق القوم على أنه ليس لتحقيق هذه المهمة، ونقلِ هذه الرغبة إلى أمير المؤمنين إلّا ابنُ عم رسول الله ﷺ عليُّ بنُ أبي طالب فهو أبو زوجته وأَجرأُ الناس عليه، أو ابنتُهُ حفصةُ أمُّ المؤمنين فإنّ لها مكانةً رفيعةً لديه.

وذهب القوم إلى عليٍّ كرَّم الله وجهه وعرضوا عليه اقتراحاتهم، ورغبتهم في أن يحملَها إلى أميرِ المؤمنين عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه... لكنّ علياً رضي الله عنه اعتذر عن تنفيذِ هذه المهمة وقال لهم: عليكم بأزواجِ النبي عليه

الصلاة والسلام، فإنهنَّ أمهاتُ المؤمنين، بجترئن عليه بما لهن لديه من المكانةِ والتقديرِ والاحترام.

وتوجّه القوم إلى عائشة وحفصة رضي الله عنهما وكانتا مجتمعتين فأخبروهما بما يريدون وما يطلبون، فقالت عائشة رضي الله عنها: إني سائلةٌ أميرَ المؤمنين ذلك... وأمّا حفصة فقالت: والله ما أرى أميرَ المؤمنين يُحَقّقُ لنا رغبتَنا، وينفّذُ طِلبتَنا...

ثم انطلقت عائشةُ وحفصةُ إلى أمير المؤمنين عمرَ رضي الله عنه ودخلتا عليه، فاحتفى بهما وأدنى مجلسَهما.

فقالت عائشة: يا أمير المؤمنين، أتأذن لي بالكلام معك؟

فقال عمر: تكلّمي يا أمَّ المؤمنين.

فقالت عائشة: يا أمير المؤمنين، إن النبيّ الكريم عليه الصلاةُ والسلام مضى لسبيله إلى جنَّةِ اللهِ ورضوانه، لم يَرِدَ الدنيا ولم تَرِدْه، وكذلك مضى أبو بكر على أَثَرِهِ لسبيله، بعد أن أحيى سنةَ الرسول عليه الصلاةُ والسلام، وبعد أن قاتل المكذّبين، وأدحض حجةَ المبطلين، مع عدلِهِ في الرعية، وقَسْمِهِ بالسويّة، وإرضائه ربَّ البرية... ثم قبضه الله إلى رحمتِهِ ورضوانه، وألحقه بنبيّه في الملأ الأعلى لم يَرِدِ الدنيا ولم تَرِدْه...

وأمّا أنتَ يا أميرَ المؤمنين فقد فتح الله على يديك كنوزَ كسرى وقيصر، ودانت لك أطرافُ المشرق والمغرب، ونرجو لك وللمسلمين من الله المزيد، وها هي رُسُلُ العجم يأتونك، ووفودُ العرب يَردونك، وعليك هذه الجبَّة العتيقة، قد رقَّعْتَها اثنتي عَشْرةَ رُقعة، فلو غيَّرْتَها بثوب لائقٍ جديد، يُهاب فيه منظرُك... ولو استبدلت يا أميرَ المؤمنين طعامَك الخشنَ القليل بطعامٍ جيدٍ هنيء، ليقوى به بدنُك، وينشَطَ به جَسَدُك على حملِ أعباء الأمّة، والقيام بشؤون الرعية.

فمَا أتمّت عائشة كلامَها حتى بكى عمر بن الخطاب بكاءً شديداً. . . ثم التفت إلى عائشةَ وقال؛ يا عائشة سألتُك بالله. هل تعلمين أنَّ رسول الله ﷺ شَبِعَ من خُبْزِ بُرٍّ ثلاثة أيام، أو جَمَعَ بين عَشاءٍ وغداء في يوم واحد حتى لقي الله ؟

قالت عائشة: لا.

فقال عمر: يا عائشة، هل تعلمين أنّ النبي ﷺ، لَبِسَ جُبَّةً من الصوف، ربَّما حكَّ جِلْدَه من خشونتها ؟ أتعلمانِ ذلك يا عائشة ويا حفصة ؟

قالتا: اللهم نعم.

فقال عمر: يا عائشة، هل تعلمين أن النبي ﷺ، كان فراشُهُ الذي ينام عليه عباءةً تُمَدُّ على طاقٍ واحد ؟

قالت عائشة: اللهم نعم.

فقال عمر: أما كان جِلْدٌ في بيتك يا عائشة، كان لكم في النهار بساطاً وفي الليل فراشاً، وكنّا ندخل على النبي عليه الصلاة والسلام فنرى أثر الحصير على جنبه ؟

قالت عائشة: اللهم نعم.

ثم التفت عمرُ رضي الله عنه إلى ابنته حفصة رضي الله عنها فقال لها:

أَلَمْ تحدثيني يا حفصة أنّك ثَنَيْتِ للنبيّ ﷺ عباءته ذاتَ ليلة لينام عليها، فوجَدَ لينها، فنام عن التهجد ولم يستيقظ إلا بأذان بلالَ فقال لك يا حفصة ماذا صنعتِ ؟ أثنيتِ العباءة تحتي هذه الليلة، حتى ذهب بي النوم إلى الفجر ؟. . . ما لي وللدنيا وكيف شغلتموني بِلِين العباءة عن مناجاةِ ربي ؟

يا حفصة أما تعلمين أنّ رسول الله ﷺ كان مغفوراً له ما تقدّم من ذنبه وما

تأخر، وكان يَمضي جائعاً، ويَرْقُدُ لله ذاكراً، ولم يَزَلْ راكعاً وساجداً، وباكياً ومتضرعاً، آناء الليل وأطرافَ النهار إلى أَنْ قبضه الله إلى رحمته ورضوانه ؟

فلا أَكَلَ عمرُ طيباً، ولا لبس ليِّناً !

وإنّما مَثَلي ومَثَلُ صاحبيّ قبلي كثلاثةِ نفر سلكوا طريقاً، فمضى الأول وقد تزوّد زاداً فَبَلغ . . . ثم أتبعه الآخر فسلك طريقاً فأفضى ووصل إليه . . . ثم أَتْبَعَهُما الثالث، فإن سَلَكَ طريقهما، ورضي بزادهما لحِقَ بهما وكان معهما، وإن سَلَكَ غيرَ طريقِهما لم يَصِلْ إليهما، ولم يجتمعْ بهما.

● وفي ذات مرة قالت له: زوجته أمُّ كلثوم بنت علي بن أبي طالب:

هلاّ كسوتني كما كسا ابنُ جعفر امرأتَه، وكما كسا الزبيرُ امرأته، وكما كسا طلحة امرأته ؟

فقال لهـا:

أما يكفيكِ أن يقال عنك: أمُّ كلثوم بنتُ عليّ بنِ أبي طالب وامرأةُ أمير المؤمنين عمرَ بنِ الخطاب ؟

● يقول الشيخ عبد الوهاب النجّار في كتابه (الخلفاء الراشدون):

وكانت رأفةُ عمر ورقته على عامة الناس في وزان (بمقدار) ما كان عليه من الشدّة على عمّاله (ولاته)، فكان عمرُ شديدَ الاهتمام بأمر الرعية دائمَ العناية بما يُصْلِحهُم وكان يُحِسّ من ذلك بمسؤولية عظمى، فكان يقول: لو أنَّ جملاً ضاع وهَلَكَ بشطِّ الفرات لخشيت أن يسألَ الله عنه آل الخطاب.

● ونقل الحسن البصري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال؛

لئن عِشْتَ لأسيرنّ في الرعية حِوَلا (متنقلا) فإني أعلم أنَّ للناس حوائجَ تُقطع دوني فأما عمالُهم فلا يرفعونها إليّ. وأمّا هم فلا يصلون إليّ فأسيرُ إلى

الشام فأقيمُ شهرين، وأسير إلى العراق فأقيم شهرين، وأسيرُ إلى اليمن فأقيم شهرين وأسير إلى مصر فأقيم شهرين، ثم عَدّد باقي الأمصار الكبرى يقيم في كل منها شهرين. وذلك ليطمئن بصورة مباشرة إلى إقامة لواء العدل والإنصاف بين الناس. ولكن الأجل عاجله رضي الله عنه فلم يتمكن من تحقيق هذه الأمنية.

● وقد خطب رضي الله عنه ذات يوم في الناس فقال:

يا أيها الناس إنّي والله ما أُرسل عمّالي إليكم ليضربوا أبشارَكم، ولا ليأخذوا أموالكم ولكنّي أرسِلُهم إليكم ليعلّموكم دينَكم وسُنَنَكم، ويقضوا بينكم بالحق، ويحكموا بينكم بالعدل، فمن فُعِل به شيءٌ سوى ذلك فليرفَعْه إليّ، فوالله الذي نفسُ عمرَ بيده لأُقِصَّنَّه منه ـ أي لآخذنّ له حقّه من الوالي الظالم ـ فوثب عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين أرأيتَ إن كان رجلاً من أمراءِ المسلمين على رعيّته فأدَّبَ بعض رعيته إنّك لتُقِصُّه ؟ فقال: نعم والذي نفسُ عمر بيده إذن لأُقِصَّنَّه منه ! وكيف لا أُقِصُّه منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يَقْتَصُّ من نفسه ؟

ألا لا تضربوا المسلمين فتُذلوهم، ولا تجمِّروهم (لا تتركوهم فترة طويلة في مواقع الجهاد بعيدين عن أهلهم) فتفتنوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفّروهم، ولا تتركوهم في الغياض (أماكن اجتماع الماء والشجر) فتضيّعوهم.

● وروى الطبريّ عن إياسَ بنِ سلمة عن أبيه قال:

مرّ عمر بن الخطاب في السوق ومعه الدرّة ـ العصا التي يحملها ـ فخفقني بها خفقة فأصابَ طَرَفَ ثوبي فقال: أمِطِ الطريق. . . فلما كان في العام المقبل لقيني فقال: يا سَلَمة تريدُ الحج ؟ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين. فأخذ بيدي فانطلق إلى منزله فأعطاني ستَّ مائة درهم وقال: استعن بها على حجك

واعلم أنّها بالخفقةِ التي خَفَقْتُكَ في العام الماضي ! قلتُ يا أمير المؤمنين: لقد نسيت تلك الخفقة وما عُدْتُ أذكرها. فقال عمر: أما أنا فما نَسِيتها !

● وروى أسلم أن نفراً من المسلمين جاؤوا إلى عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فقالوا: كلِّم لنا عمرَ بنَ الخطاب فإنه قد أخشانا ـ أي أخافنا ـ حتى واللهِ ما نستطيع أن نديم إليه أبصارَنا. فذهب عبد الرحمن إلى عمر رضي الله عنهما ونَقَلَ له ما ذكره أولئك النفر.

فقال عمر رضي الله عنه: أَوَ قد قالوا ذلك ؟ ! والله لقد لِنْتُ لهم حتى تخوّفتُ الله في ذلك، ولقد اشتددتُ عليهم حتى خَشِيت الله في ذلك. وأيم الله لأنا أخافُ منهم أكثر مما يخافون مني !

● وكان بين عمرُ بن الخطاب وبينَ رجلٍ من الناس كلامٌ في قضية بينهما. فقال الرجلُ لعمر: اتق الله.

فَغَضِبَ أحدُ الرجال الجالسين وقال: أتقولُ لأمير المؤمنينَ اتق الله ؟

فقال عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه:

دعْه يا هذا فليقلْها لي. ونِعْمَ ما قال.
ثم التفت عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه للناس وقال:
لا خيرَ فيكم إذا لم تقولوها ولا خير فينا إذا لم نقبلها.